المنار ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

{ مصر ٣٠ شعبان ١٣٣٠ ﻫ ق ٢٢ الصيف الثاني ١٢٩١ ﻫ ش ١٣ اغسطس ١٩١٢ م }

الخطبة الرئيسية (*)

(في ندوة العلماء بلكنهو « الهند »)

« لصاحب المنار »

أيها الاساتذة الكرام !

انكم تعلمون ان جميع القواعد الكلية للعلوم منتزعة من الجزئيات فالعلم بالجزئيات متقدم بالطبع فيجب أن يكون مقدماً بالوضع ، فاذا ذكرت الاجناس والفصول المقومة والمقسمة لأنواع من الحيوان والنبات والقيت على من لم ير شيئاً من أفراد تلك الانواع أو رأى قليلا منها ثم دخل في بستان يوجد فيه أفراد من تلك الأنواع كلها أتحسب انه يستطيع أن يعرف كلا منها بهداية تلك التعريفات والقواعد الكلية؟؟

(*) تتمة لما نشر منها في الجزء الخامس ص ٣٣١ وكان سبب تأخر هذه البقية ان تأخر حضور بقية أصول الخطبة من الهند

لا ! لا ! أما من يعرف أفراد تلك الانواع فانه لا يحتاج الا لتنبيه قليل لمعرفة ما بينها من الفصل والاختلاف واذا ذكرت تلك الكليات يتناولها فهمه بسهولة وسرعة

ومفردات اللغة وأساليبها كمفردات أنواع الكائنات يشترك بعضها في الفاعلية أو المفعولية وفي الحقيقة أو المجاز وفي غير ذلك من أنواع الاتفاق فالقاعدة الموضوعة لضبط الفاعل والمفعول والحقيقة والمجاز لا يفهمها بسهولة وسرعة من لا يعرف الكثير من مفرداتها بالاستعمال . ثم اذا هو فهمها لا يسهل عليه أن يطبق مفرداتها عليها . وأما من عرفها بالاستعمال فانه يفهمها بغاية السهولة ولا سيما اذا عرض عليه عند ذكرها كثير من الامثلة والشواهد عليها

التعليم على هذه الطريقة هو التعليم الموافق للفطرة - فطرة الله التي خلق الناس عليها ومخالفته مخالفة للفطرة ، فالناس يتعلمون اللغات بتلقي مفرداتها بالعمل وكذلك تعرف الموجودات والكائنات بمعرفة أفرادها، والذين وضعوا قواعد العلوم هم جماعة من أصحاب العقول الكبيرة عرفوا تلك الاشياء حق المعرفة ثم بالتأمل فيها انتزعوا منها تلك القواعد، فاذا كلفنا التلاميذ الصغار أن يعرفوا تلك القواعد الكلية قبل أن نعرض عليهم تلك الجزئيات نكون كأننا نكلفهم أن يكونوا رجالا علماء حكماء قبل أن يشبوا وان يتعلموا وبذلك نكون قد أرهقناهم من أمرهم عسراً

ان علماءنا المتقدمين لم يكونوا محتاجين الى تسهيل طريقة تعليم اللغة العربية كحاجتنا اليها الآن لأنها كانت ملكة لهم ومع هذا كانت كتبهم ككتاب سيبويه أقرب الى التعليم الفطري من كتبنا لكثرة ما كان فيها من الشواهد والأمثلة الموضحة للقواعد الكلية

ومالي أضرب الامثلة لتعليم فنون اللغة والمنطق ولا أذكر ما هو أهم من ذلك وأعلى وهو تعلم القرآن ودراسة تفسيره وهو المقصد الاعلى والغاية الفضلى ؟ لعلي اذا أنشأت أبين كيف يجب علينا أن نتعلم تفسير القرآن تعلما يعيننا على الاهتداء به أكون قد استهدفت لنقد كثير من الناس الذين يظنون أن القرآن الحكيم لا يحتاج الى فهمه الا المجتهدون الذين يتصدون لاستنباط الاحكام الفقهية العملية في أحكام ظواهر العبادات والمعاملات القضائية التي يحتاج اليها الحكام في المحاكم والمفتون . أولئك الذين يظنون غير الحق وترتعد فرائصهم من ذكر القرآن ويرون أنهم يبعدهم عن فهمه وصد الناس عنه يخدمون دينهم ويحافظون عليه

أيها السادة الكرام !

ان الله تعالى انزل القرآن هدى للناس اجمعين وان الاهتداء ليس خاصا بالمجتهدين الذين يستنبطون الاحكام العملية الفقهية وان آيات الاحكام فيه هي أقل عدداً من سائر الآيات التي تهدي العقول والارواح ، وترقى بها الى اعلى معارج الفلاح ، وكان سلفنا في القرون الاولى يهتدون به ويحيون بحياته ولم يكونوا كلهم ولا أكثرهم مجتهدين بهذا المعنى المعروف في الاصول .

لولا هداية القرآن وسلطانه على ارواح اولئك الاخيار لما كانوا خير امة أخرجت للناس ولما انتشر الاسلام بفضل الاقتداء بهم فقد زكى القرآن انفسهم ورقى عقولهم حتى كانوا لا يدخلون بلادا الا ويجذبون أهلها الى الاسلام بمحض القدوة ، ذلك بأنهم ما كانوا يعرفون لغة اولئك الاقوام ولا كانوا يفتحون لهم المدارس ويعلمون أحداثهم دينهم ولغة دينهم ، فكيف انتشر الاسلام من اقصى الهند الى اقصى افريقية وأوربة في تلك المدة القصيرة ؟

يقول الجاهلون : ان الاسلام قد انتشر بقوة السيف ؟ ياسبحان الله ! ان هذا الدين بدئ برجل واحد وهو النبي صلى الله عليه وسلم وكان قومه يجالدونه بسيوفهم طول حياته ولم يظفر بهم الظفر التام الا قبيل وفاته أعني عام فتح مكة . ثم ان اولئك الشراذم من الصحابة الكرام انتشروا في شرقي ارض الحجاز وغربها فهل كان في استطاعتهم ان يكرهوا أهل المشرق والمغرب على الاسلام وهم يقبلون منهم الجزية التي كانت أقل مما يأخذه حاكم من محكوم ثم هم يعاملونهم بالعدل والمساواة في الحقوق القضائية ويتركون لهم حرية دينهم ويسمحون لهم ان يحاكموا الى رؤساء ملتهم في كل خصام يقع بينهم ؟؟ كلا انهم لم يكرهوا أحدا على الاسلام بحد السيف وانما جذبوا قلوبهم وعقولهم اليهم لانهم رأوهم أعدل الناس وارحم الناس وافضلهم اخلاقا وآدابا فاقتدوا بهم واحبوا ان يكونوا مثلهم بل منهم فكانوا يدخلون في الاسلام افواجا ويقبلون على تعلم اللغة العربية لاجل ان يهتدوا بنور ذلك الكتاب العربي المبين ، الذي جعل اولئك الفقراء المستضعفين هم الائمة الوارثين ، ولهذا انتشرت اللغة العربية بانتشار الدين بسرعة غريبة قبل ان يكون لها مدارس منشأة ولا كتب مدونة

يمكن لمن يفهم اللغة العربية حق الفهم أن يهتدي بالقرآن ويعتبر بمواعظه وآدابه وان لم يقرأ شيئا من كتب الفقه فان تأثير القرآن في قلوب من يفهمونه عجيب حتى ان بعض أدباء النصارى عندنا بمصر يعجبون منه ويعترفون به وقد سمعت غير واحد

منهم يقول عند حضور بعض احتفالات المدارس وسماع القرآن المجيد فيها: ان لهذه القراءة تأثيرا عميقا في النفس . هذا وهم لايؤمنون به فما بالكم بالمؤمنين المخلصين . اولئك الذين هم مرآة قوله تعالى « الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين قلوبهم وجلودهم الى ذكر الله » وقوله « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون » فهل يمكن لمن لايفهم العربية فهما صحيحاً أن يكون من هؤلاء المؤمنين الصادقين ؟ وقال عز وجل « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعاً من خشية الله وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » فاعتبروا بقوله تعالى « وتلك الامثال » فانه تعالى هدانا بهذا المثل الى ان نربأ بأنفسنا ان تكون قلوبنا أقسى من الحجارة وهكذا شأن من يخشع بالقرآن ولا يتأثر بمواعظه

اذا سمع من يفهم العربية فهماً صحيحاً مثل قوله تعالى في الآيات الكريمة التي افتتح بها هذا الاحتفال « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون » فانه يمكنه أن يفهم منه أن النبي صلى الله عليه وسلم ما دعانا بهذا الكتاب الحكيم الا الى ما نحيا به حياة معنوية طيبة تكون بها أمة عزيزة كريمة ، وأن ينتقل ذهنه من ذلك الى تدبر القرآن ليهتدي به الى السنن الاجتماعية والنفسية التي بين الله تعالى فيها أسباب هذه الحياة وهي كثيرة في القرآن ، وليست مما يلحقه النسخ الذي تشترط معرفته في الاجتهاد ،

بيان هذه الحياة في كتاب الله تعالى أعلى مرتبة من بيان بعض أحكام المعاملات، كأحكام الحيض والبيع والسلم والشركات ، قال تعالى « ينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده » وما سمى الله الوحي روحا الا لانه ينفخ في المهتدين روح الحياة المعنوية التي يكونون فيها ائمة الخير في الدنيا وأصحاب السعادة في الآخرة . تلك الحياة التي ظهر أثرها في سلفنا فسادوا العالم كله كما اشرنا الى ذلك من قبل ، ونحن ننشدها ونبحث عن اسبابها الآن

اني كنت أود لو ابني خطابي وتذكيري هذا على الآيات التي افتتح بها الاحتفال والافاضة في الكلام على هذه الحياة ، ولكن اقترح علي مولانا الشيخ شبلي أمس أن أقول شيئا في التعليم فلم يكن لي بد من الامتثال، واني قد افتتحت خطابي بقوله تعالى « الحمد لله الذي احيانا بعد ما أماتنا واليه النشور » للاشارة الى هذه الحياة وحثنا

منها الآن . تعلمون ان هذه الآية تتلى عند الاستيقاظ من النوم ، وقد اشرت بافتتاح الخطاب بها الى ان حظنا من هذه الحياة الآن هو أنا أخذنا نستيقظ من ذلك النوم الطويل ـ والنوم ضرب من الموت « الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها » ـ فلست اعني بهذا انا عدنا أمة حية كما كنا ، والله تعالى يحمد على كل حال

موت الامم يشبه النوم ، وحياتها تشبه اليقظة ، ولا أقول أن امتنا قد استيقظت كلها من ذلك النوم الطويل ، والسبات المستغرق ، الذي مرت عليها القرون وهي فيه لاتشعر بما تعمله الامم الحية المستيقظة من حولها ، ولا بما فعلته حوادث الايام في جسمها ، وانما استيقظ الآن بشدة قوارع تلك الحوادث طائفة من أفرادها ، وهم دعاة الاصلاح الذين ارتفع صوتهم في بلادها ،

أيها الاخوة الكرام :

إنا مرضى ودواؤنا في الكتاب الذي أنزله الله الينا ، قال الله عز وجل « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين » وكيف يرجى الشفاء ، لمن جهل الدواء ، وانما يعرف هذا الدواء بمعرفة اللغة العربية ، ثم بتلاوته وتدبره ، بقصد الاستشفاء والاهتداء به ، فاذا كان بين مسلمي العرب وبينه حجاب وهو ترك التدبر بهذا القصد ، فان بين مسلمي العجم وبينه حجابين وهما جهل لغته ، وعدم تدبره ، وان ازالة كل من الحجابين ، من أسهل الاعمال على الفريقين ، وقد جربنا تذكير عوام العرب بمواعظ القرآن فنفعت الذكرى ، وكذلك تنفع غيرهم اذا رفع الحجاب ، وتوفرت الاسباب ، وأتيت البيوت من الابواب ، « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين * فذكر ان نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى »

اني أعتقد أيها الاخوة بالدليل ، ان تعلم اللغة العربية فرض على جميع المسلمين ، فان ما فرضه الله تعالى عليهم من تدبره والتذكر والاعتبار به ، والاهتداء بهديه ، كل ذلك يتوقف على معرفة لغته ، وقد روي هذا القول عن بعض علماء السلف ومنهم الشافعي ، وهو ما جرى عليه العمل في الصدر الاول وهو ابلغ من القول ، ولولا هذا الاعتقاد لما انتشرت اللغة العربية بانتشار الاسلام في الشام والعراق وفارس من بلاد المشرق ، ومصر وافريقية الشمالية كلها والاندلس من جهة المغرب ، وهي البلاد التي فتحها الصحابة والتابعون رضي الله عنهم ، ثم امتدت الى غيرها من بلاد الاسلام كهذه البلاد وغيرها من قبل ان تنشأ المدارس لها ، ولولا فتنة العصبية الجنسية التي اثارها بعض زنادقة العجم في الاسلام لاجل هدمه وازالة سلطته لكانت

الامة الاسلامية كلها اليوم تتعلق بلسان واحد ، وتدعى الى فلاحها فتستجيب بلسان واحد ،

من الآيات الكثيرة الدالة على وجوب تدبر القرآن والاهتداء به قوله تعالى « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» وقوله « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ، إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوّل لهم وأملى لهم » أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين ، أم لم يعرفوا رسولهم فهم لهم منكرون » وقوله تعالى « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر » اي سهلناه ، لاجل ان يتذكر ويتعظ به من يتذكر فهل من متذكر ؟ وهو استفهام بمعنى الامر . وقوله تعالى « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » وقوله « هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » وقوله تعالى «وذكر به ان تبسل نفس بما كسبت » وقوله « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه أولئك الذين هداهم الله واولئك هم أولو الالباب » ومنها الآيات التي تبين تأثيره في قلوب المؤمنين وقد ذكرنا منها قوله تعالى « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم» الآية وقوله عز وجل « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً » الآية . ومنها الآيات الكثيرة الهادية الى كونه تعالى أنزله ليعقلوه وجعله تبيانا لكل شيء . وكل ذلك لا يكون الا بفهم اللغة العربية فهماصحيحاًيؤثر في النفس . وهذه الضروب من هداية القرآن لا تقتبس الا منه وليست من المسائل الاجتهادية التي تنال بالتقليد ،

وخلاصة القول اننا لا شفاء لنا ولا حياة الا بكتاب ربنا ، وان الاهتداء به لا يكون الا باحياء لغته ، فان الترجمة ليست من كلام الله المنزل وليس لها تأثيره في النفوس ، وإحياء اللغة وسهولة تعلمها إنما يكون بما اشرنا اليه من إصلاح التعليم ، فعليكم أن تساعدوا الذين يتصدون للاصلاح كهذه الندوة المباركة . وقد ضاق الوقت عن بيان اصلاح تدريس سائر العلوم الاسلامية . ثم بيان ما نحتاج اليه من العلوم الدنيوية ، وحان موعد حل الجلسة ، وقد بينا كل ذلك في الفصل الملحق بنظام مدرسة دار الدعوة والارشاد ، فليراجعه من أراد ، وأنني اختم الجلسة الآن

* * *

التربية

(ووجه الحاجة اليها وتقاسيمها)

« والكلام على تربية الامم والاسلام ، والتربية الدينية والاسلام ، وتربية الارادة »

(خطبة ارتجالية ألقيت في مدرسة العلوم الكلية بعليكره)

أيها النواب الجليل : أيها الاساتذة والوجوه الاجلاء : والطلاب النجباء !

شرفتموني بدعوتكم إياي الى الخطابة فيكم ، فلم أر بدًّا من اجابة دعوتكم والشكر لكم، وقد اخترت أن يكون كلامي في التربية التي هي من علمكم وعملكم، وان كنت في ذلك كمن ينقل التمر الى البصرة - كما يقال في المثل - ولوشئت لتكلمت في موضوع ليس لكم فيه علم تفصيلي كحالة المسلمين في بلادنا ، ولكن بحث التربية أهم ، والحاجة اليه أشد ، فرأيت أن أعرض على مسامعكم شيئاً من رأيي فيه لانني أشتغل به علما وعملا كما تشتغلون ، فان وافق رأيكم حمدت الله تعالى على اتفاقنا في هذا الشأن العظيم على بعد الدار ، واختلاف اللسان ، وان خالفه رجوت أن تنبهوني وتبينوا لي ما ترون أنه الصواب فأستفيد من علم اخواني وتجاربهم ما أنا في أشد الحاجة اليه ، والحقيقة بنت البحث كما يقولون

تنقسم مباحث التربية الى عدة أقسام باعتبارات مختلفة ، فمن ذلك انقسامها بحسب الموضوع الى تربية الجسد وتربية النفس وتربية العقل ، ومنه انقسامها بحسب الموضع الى تربية المنزل وتربية المدرسة ، وانقسامها بحسب المربي الى تربية الأم والاب للولد وتربية الاساتذة للتلاميذ ، وتربية المرء لنفسه ، وانقسامها بحسب المربَّى الى تربية الافراد وتربية الامم . وهنالك أقسام أخرى أصلية أو فرعية كبحث التربية الدينية ونسبة المسلمين فيها الى غيرهم من أهل الملل ، وبحث تربية استقلال الفكر والارادة وهو من فروع تربية العقل وتربية النفس

أما وجه الحاجة الى التربية فلا أراني في حاجة الى الافاضة فيه لأجل الاقناع به فان هذا قد صار عند أمثالكم من قبيل البديهيات التي لا نزاع فيها ، وانما أذكركم

ببعض آيات القرآن الحكيم في ذلك التذكير بهدايته العليا وموافقتها لما يدل عليه العقل والتجارب ، وتقتضيه طبيعة الاجتماع البشري

قال الله تعالى « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون » يعني ان الله تعالى خلق كل فرد من أفراد الانسان جاهلا لا يعلم شيئاً مما يحتاج اليه لاقامة بناء حياته الشخصية والنوعية فكان في مبدأ خلقه وأول نشأته دون سائر أنواع الحيوان التي يخلقها الله تعالى عالمة بما تحتاج اليه بالفطرة متوجهة اليه بالطبع ، ولذا قال تعالى في آية أخرى «وخلق الانسان ضعيفاً » فالانسان من هذه الجهة أضعف من الحيوانات حتى ما كانت بنيتها منها أضعف من بنيته ، ولكن الله تعالى اعطاه من المواهب والقوى ما ان استعمله فيما خلق لأجله كان أقوى المخلوقات في هذه الأرض يسخر الحيوانات القوية لمنفعته ويستخدم قوى الطبيعة في أعماله ، وبهذا كان في مجموعه خليفة لله في أرضه ، يظهر أسرار خلقه وسننه الحكيمة فيها ، وقال تعالى في خلقه بهذه المزايا « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » وهو لا يرتقي في معارج الكمال بمزاياه الا بشكر الله تعالى على نعمة الحواس والمشاعر الظاهرة، والعقول والوجدانات الباطنة، وعبر عنها بالافئدة في الآية حسب استعمال العرب ، وانما الشكر عليها هو استعمالها فيما خلقت لأجله من تحصيل العلم بالمنافع والمضار والمصالح والمفاسد لأجل العمل بما تقتضيه الفطرة من اجتناب المضرة والمفسدة ، واختيار المنفعة والمصلحة ، على بصيرة وعلم

العبرة في الآية ان الشكر من أعمال الانسان الاختيارية ، لا من المواهب الفطرية ، وقد أرشدنا القرآن ، ودلنا العلم والاختبار ، على أن الانسان يستفيد من حواسه وعقله بقدر تعاون أفراده على ذلك بالبحث والعمل واستفادة المتأخرين مما وصل اليه علم من قبلهم واختبارهم . حتى لا يضطر كل منهم الى استئناف الاختبار لكل ما يحتاج اليه من الضروريات ، فلا يفرغ حينئذ احد منهم الى الترقي في معارج الكماليات ، وجملة القول في هذه المسألة ان الله تعالى وهب الانسان المشاعر والمدارك الظاهرة كالسمع والبصر والباطنة كالعقل والوجدان ، وجعلها آلات له يرتقي بها الى ما هو مستعد له من الكمال ، ووكله في ذلك الى نفسه ، وناط سعادته او شقاوته بعلمه وعمله ، فكان محتاجا بمقتضى فطرته الى ان يقوم بعض أفراده بتربية الآخرين وتعليمهم حتى لا يطول عليهم امد الجهل ، والخطأ في العمل ، وانما يكمل ذلك بجعل التربية والتعليم فنين ينفرد بهما من يتقنونهما

كما أنعم الله تعالى على افراد الناس بالحواس والعقول ، أنعم على جملتهم بعلم آخر أعلى من العلوم التي يستفيدها كل فرد بكسبه وبحثه ، وهو الوحي الذي أيد به رجالا منهم بافاضته عليهم من لدنه بغير كسب ولا بحث ، فكان كالعقل للنوع - كما قال الاستاذ الامام - ولولاه لما ارتقى البشر الا في الزمن الطويل ، بالسير الناقص البطيء ، « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين »

هذه أشارة الى ما تقتضيه فطرة البشر من الحاجة الى التربية والتعليم ، نقرنها باشارة اخرى الى مكانة التربية والتعليم من دين الفطرة الذي ختم الله به الاديان ، وهو دين الاسلام ، وأكتفي في بيان هذا بقوله تعالى في سورة الجمعة « هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » وقوله تعالى في سورة البقرة « كما ارسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » فقد بين الله تعالى أنه ارسل رسوله ليكون مربيا معلما ، فان التزكية هي التربية الفضلى التي تكون بها نفس الانسان زكية كريمة متحلية بالفضائل ، مطهرة من الرذائل ، والكتاب مصدر بمعنى الكتابة اي يعلمهم ان يكونوا كاتبين لما يعلمونه ليحفظ وينتشر ، وان يكونوا حكماء عارفين بالعلوم النافعة التي ترتقي بها افرادهم وجماعتهم ، وليس وراء هذا التعليم وتلك التربية غاية ، الا ما يترتب على الكمال فيها من سعادة الدنيا والآخرة

تربية الامم ورسالة خاتم النبيين

أنتقل من هذه المسألة الى كلمة أقولها في تربية الامم وهي من أقسام التربية التي بينتها في بدء الكلام فأقول : المراد بتربية الامم إحداث انقلاب عام فيها ونقلها من طور الى طور اعلى منه وأرقى في الحياة المادية والمعنوية ، وهذا العمل هو اشق الاعمال البشرية وأرقاها ، وهو يتوقف على علم صحيح واسع يقل في الناس من يتقنه ، وعلى بصيرة نافذة يندر في البشر من يؤتاها ، وعلى اعوان كثيرين من اهل هذه البصيرة والعلم يعملون بالتعاون والاخلاص ، وما كل عليم بصير يتقن العمل بعلمه وينجح فيه ، وان كان عمله دون اصلاح احوال الامم ، وتغيير احوالها الاجتماعية ،

وانما تتغير أطوار الامم عادة بالتدرج البطيء ، في الزمن الطويل .

ان علوم الاجتماع البشري والاخلاق وطبائع الامم والسياسة والتربية وغيرها من العلوم التي يحتاج الى معرفتها رجال الاصلاح الذين يربون الامم قد صارت مدونة تدرس في معاهد العلم وهي مقتبسة من كتب الاديان ومن التواريخ والتجارب ، والمتقنون لها في الشعوب المرتقية كثيرون في أنفسهم وان كانوا أقل من المتقنين لغيرها ، ولكن لا يوجد فيهم من يقدر على احداث انقلاب سريع او تغيير في احوال امة من الامم البدوية مع الامم الحضرية ، وانما يحاولون مثل هذا التغيير بانشاء المدارس الكثيرة وتعميم التربية والتعليم ، وتعاقب القائمين بذلك عدة أجيال .

اذا تصفحنا تاريخ البشر رأينا ان أبدع مثال واغرب صورة من مثل تربية الامم وصورها هو ما كان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : أمي نشأ لم يقرأ كتابا ، ولم يمسك بيده قلما ، بل لم يكن يوجد في بلده الذي نشأ فيه كتاب يقرأ (بالمعنى الذي يفهم الآن من كلمة « كتاب » وهو مجموعة صحف كتب فيها كثير من المسائل) وقال بعض المؤرخين: انه لم يكن يوجد في مكة قبل بعثته أحد يعرف الخط الا ستة رجال لما تعلموه في مدرسة ، ولا قرءوا به علما ، وانما ألجأتهم الضرورة الى ذلك بالاتجار ، ومخالطة بعض الشعوب في الاسفار، في هذا شأنه وشأن قومه في الأمية ، والبعد عن أسباب العلم والحضارة ، نهض بتربيتهم وهو في سن الكهولة ، تم التغيير والتبديل ، قبل انقراض الجيل ، بهداية هذا القرآن الحكيم ، وتربية هذا النبي الامي العظيم ، ثم حمل هذه الهداية الذين تربوا بها في الكبر ، الى أهل الحضارة والبداوة من شعوب البشر ، فما دخلوا قطرا من الاقطار محاربين أو مسالمين، الا وجذبوا أهله الى دينهم ولغتهم من غير مدارس تنشأ ، ولا كتب تقرأ ، ولا مجالس للجدال تعقد ، ولا أموال ولا منافع تبذل ، ولا سيف للاكراه على الدين يستل، وانما كانت سيرتهم الطاهرة ، وآدابهم العالية ، هي التي تجذب الامم اليهم ، وتفسر سرائرها على الاقتداء بهم ، وتقود عقولها الى الدخول في زمرتهم ، وقد شهد لهم ولمن تبعهم من بعدهم علماء الافرنج المنصفون ومؤرخوهم المحققون ، قال الحكيم الفرنسي غوستاف لوبون صاحب كتاب حضارة العرب: ما عرف التاريخ فاتحا أرحم ولا أعدل من العرب .. وقد بينت كيفية نشأة الاسلام وانتشاره في خطبتي الختامية لاحتفال ندوة العلماء .

أريد بذكر هذا المثال الخارق للعادة من تربية الامم أن اذكر لكم آية على نبوة

نبينا صلى الله عليه وسلم تفوق جميع ما أوتي النبيون من الآيات التي لاجلها آمن بهم الناس ، فانها آية علمية عملية ، تدل على التأييد الالهي دلالة عقلية حسية ، واما نحو قلب العصا حية وإبراء الاعمى والأبرص فليست دلالة على النبوة من هذا القبيل ، وقد آمن بسببها من آمن من الناس لأنهم اعتادوا ان يخضعوا لمن يظهر على يديه أمر يعلو قدرتهم ، لاعتقادهم ان ذلك لا يكون الا من القدرة الالهية ، والسلطة الغيبية ، وكانوا بذلك يقبلون هداية الانبياء عليهم السلام فيحصل المقصود من بعثتهم. وقد ضرب أبو حامد الغزالي في كتابه القسطاس المستقيم مثلا للفرق بين الآية العلمية التي هي العمدة والأصل في الدلالة على نبوة نبينا (ص) والآيات الكونية التي كان يحتج بها الأنبياء السابقون عليهم السلام فقال: اذا ادعى رجل انه طبيب ودعا المرضى الى قبول معالجته واستعمال أدويته واستدل على صدقه في دعواه بقلب العصا حية لا يكون دليله كدليل من يدعي مثل دعواه ويدعو الى مثل دعوته مستدلا على صدقه بكتاب ألفه في علم الطب ثم عالجه طائفة من المرضى بما في ذلك الكتاب من بيان طرق العلاج والأدوية وشفاؤهم بذلك في أقرب وقت وأسرعه

لنشأ نبينا صلى الله عليه وسلم أميا بين قوم أميين ولم يعن في صباه وعهد شبابه بما كان يعنى به فصحاء قومه وأذكياؤهم من الشعر والخطابة ، والمباراة في المفاخرة والمنافرة ، ثم قام في سن الكهولة يدعو قومه وسائر الامم الى إصلاح ما فسد من عقائدهم وأخلاقهم وأحكامهم وسياستهم وأحوالهم الشخصية والاجتماعية ، وقال أن الله أوحى اليه من العلم ما يكفل ذلك ووعده أن يؤيده فيه فهو يربي قومه العرب ويزكيهم بالقرآن ويعلمهم الكتاب والحكمة وهم ينشرون دعوته ويبثون حكمته في الامم ، فيفتح الله لهم المشرق والمغرب ، وينقل الله بهم الامم والشعوب من حال الى حال أعلى وارقى — من الوثنية والعبودية والذلة والظلم وفساد الاخلاق والآداب والجهل الى التوحيد والعدل والحرية والآداب والفضائل والعلم وثمراته — وقد كان ذلك — فهل يعقل ان هذا مما يقدر عليه أمي مثله بعلمه الكسبي واستعداده الشخصي؟

كيف ونحن نرى الدولة القوية بالعلم والنظام والسلاح تستولي على قطر من الاقطار أو شعب من الشعوب بالقوة القاهرة ثم تقبض بكلتا يديها على جميع أسباب حياته الحسية والمعنوية ، ومصالحه الجسدية والروحية ، وتحاول ان تربيه تربية جديدة ، مهتدية في ذلك بالسنن التي هدتها اليها علوم الاجتماع والسياسة ، فتمنعه من قراءة ما ينافي غرضها من الكتب والصحف وتنشىء له المدارس في كل بلد من قبلها

وتبث في كل منها دعاة دينها ، فيعلمون الصغار في هذه المدارس لغتها ودينها وتاريخها وكل ما يشغل النفس والعقل بها ، ويحول المتعلمين عن دينهم ومقومات أمتهم ومشخصاتها الى أقصى ما تحاول الدولة الفاتحة ان تحدثه لهم من المقومات والمشخصات ، ثم نراها لا تكتفي بتكوين الصغار تكوينا جديدا ، بل تحدث في نفوس الكبار كل ما يستطاع من الاحداث التي تزعزع كل ما كانوا عليه من مقومات أمتهم ومشخصاتها كتغيير العادات والأزياء ، ونشر الجرائد التي تشغل الأذهان والأفكار بعظمة تلك الدولة وأمتها وآدابها وسياستها ، ـ يتولى كل هذه الاعمال رجال استعدوا لها ، وحذقوا علومها في المدارس العالية ثم تمر الأجيال ولا تستطيع دولة من هذه الدول الفاتحة بالعلم والقوة ان تحول أمة عن دينها ولغتها كالتحويل الذي احدثه الاسلام في جيل واحد بتحويل عدة أمم عن دينها ولغاتها وعاداتها بدون استعانة على ذلك بالمدارس والجرائد ، ولا بغير ذلك من الاسباب الصناعية التي هدت اليها العلوم الاجتماعية ، أليس هذا برهان علمي قطعي على ان نبينا (ص) كان مؤيدا من الله تعالى فيه وانه من خوارق العادات ؟ بل إنه أعظم الخوارق وأقواها ، وأظهر المعجزات وأسماها ، وحسبنا منه الاشارة اليه ، والتذكير به

تربية البيوت والامهات

أنتقل من هذا الى كلمة وجيزة في تربية البيوت ـ : تعلمون أيها الفضلاء أن تربية البيوت هي الاساس الذي يبنى عليه ما بعده ، وان الامهات هن اللواتي يقمن بها ، وماذا نعمل في أمر هذه التربية ونساؤنا قد استحوذ عليهن الجهل بكل ما تتوقف عليه التربية من العلوم والآداب الدينية والدنيوية بعد أن كن يضربن مع الرجال في القرون الاسلامية الاولى والوسطى بكل سهم ، وينلن حظهن من كل علم ؟ ـ لأن الاسلام فرض العلم على الرجال والنساء جميعا ، ولم يجعل بين الفريقين فرقا في التكاليف الا ماهو خاص بكل منهما بمقتضى الفطرة او طبيعة الاجتماع (وكأحكام الحمل والولادة الخاصة بالنساء وفنون القتال الخاصة بالرجال)

لا يمكننا أن نقيم التربية القويمة على اساسها الا اذا ربينا النساء وعلمناهن ما يتوقف عليه قيامهن بتربية أولادهن ، وقد اضطرب المسلمون في هذه المسألة فبعضهم يدعو الى تقليد الافرنج في تعليم نسائهم وتربيتهن وهم يظنون اننا اذا ربينا نساءنا على نمط تربية نسائهم ، وعلمناهن كعلمهم ، نكون في دنيانا مثلهم في دنياهم ، وهذا جهل بما

الاجتماع وطبائع الامم عظيم ، وخطؤه في علم التربية والاخلاق كبير ، والصواب أننا نهدم بهذا التقليد مقوماتنا ومشخصاتنا الملية والقومية ، ولا نستطيع ان نبني به مثل مقوماتهم الاجتماعية ، فعلينا أن نربي بناتنا على آداب ديننا وفضائله واحكامه ، وان نعلمن لغة ديننا ولغة وطننا ، وتاريخ أمتنا وديننا ، وعلم التربية وتدبير المنزل والحساب وقانون الصحة ، وشيئا إجماليا من شؤون العالم واحوال العمران يعرفن به حاجات العصر الذي يعشن فيه . ويدخل في هذا علم خرت الارض وتقويم البلدان (الجغرافية) والتاريخ العام

هذا هو الذي لابد منه لكل امرأة ، وقد يحتاج الى تعليم بعضهن العلوم العالية التي لابد منها كالطب والجراحة ولا سيما القسم النسائي منه المتعلق بالحمل والولادة ، وكفن التمايم فان اللائق بآداب الاسلام ان تكون المرأة هي التي تعلم البنات وتطبب النساء وكما تحتاج الى الطبيبات والمعلمات نحتاج الى المربيات في البيوت فان أمراءنا وكبراءنا ومقلدتهم من سائر طبقات الاغنياء لجؤا الى المربيات الاوربيات يلقون اليهن بأفلاذ أكبادهم من الذكور والاناث فيربينهم على آداب وأخلاق غير آداب ملتهم وأخلاقها ، ويعلمنهم لغات غير لغات أمتهم ودينهم ، ولا خير لهم في هذا ولا لأمتهم، لانهم يتشكلون بشكل لايتفق مع شكلها ، فتنفصل منهم وينفصلون منها ، فان النفوس في أفكارها وعقائدها وأخلاقها وغاياتها أشكالا كالاشكال الهندسية فاذا كنا لانستطيع ان نقيم بناء رصينا محكما منتظما من حجارة بعضها مثلث وبعضها مربع وبعضها كروي فكذلك لانستطيع أن تكون أمة عزيزة راقية من أفراد تختلف اشكال نفوسهم العقلية والنفسية وما يترتب عليه من اختلاف أعمالهم وعاداتهم ، نعم ان هؤلاء الذين تربيهم النساء الافرنجيات قد يكونون أرقى في الآداب الاجتماعية العصرية والنظافة من أمثالهم النغل المهملين ، الذين يوكلون الى مايتخبطونه من الشارع والماشرين ، وفضل السيف على العصا لابد فضلا كبيرا ، وانما نطلب تربية تكون بها أمة حية عزيزة متحدة كغيرنا من أمم الحضارة ، ولن ندرك هذا بمثل هذا التفرنج التقليدي في كبرائنا ، بل هذا أقوى مايحول بيننا وبين مانريد

تربية المدارس

يجب ان تكون عنايتنا بتربية المدارس اشد من عناية غيرنا لاننا وقد تعذرت علينا التربية الاساسية الاولى بجهل نسائنا تربي تلاميذ سرى الفساد الى أخلاقهم ، والخرافات

الى عقولهم ، ولكننا لم تقم بهذا الواجب ولم تعن مدارسنا بالتربية النفسية ولا بالتربية العقلية التي هي وظيفتها الاولى ،

لا أعني بالتربية العقلية تعليم العلوم التي يرتقي بها العقل فان التعليم -وان كان يدخل في مفهوم التربية العام الذي يشمل تربية الجسم والنفس والعقل - قد خص بهذا الاسم دون سائر انواع التربية وصارت المقابلة بين التربية والتعليم من المقابلة بين العام والخاص. وانما أعني بالتربية العقلية ان يتوخى في اسلوب التعليم استقلال عقول الطلاب في الفهم والحكم في المسائل ، وتحرير الحقائق وأن لا يعوّدوا أخذ المسائل العلمية بالتسليم والتقليد ، فبهذا تربى العقول وتنمو الافكار وتخرج العلماء المستقلون الراسخون ،

إنما سبب تقصيرنا في التربية المدرسية فقد الاساتذة الاكفاء القادرين عليها أو ندورتهم ، فانه يقل في المتعلمين منا من تُربي تربية صالحة يرجى نفعها ، وانما يقوم بناء التربية على أساس القدوة والتأسي بالمربي والاستفاضة من ينبوع فضائله ومثاله « وفاقد الشيء لا يعطيه » وقصارى ما يمكن أن يطالب به العقلاء من نظار المدارس وأساتذتها هو أن يتكلفوا ما يجب عليهم من ذلك تكلفا عسى ان يصير ما يتكلفونه خلقا لهم أو لتلاميذهم ، وان يرشدوا الطلاب الى العناية بتربية انفسهم

تربية المرء لنفسه

ايها الطلاب النجباء !

إنني اخصكم بالخطاب والتذكير في هذا القسم من اقسام التربية . سمعتم قولي في تقصير مدارسنا في التربية ورأيي في سببه ، وأزيدكم على ذلك أن المدارس التي هي أرقى من مدارسنا في الامم التي هي أرقى في الحضارة والعلوم من أمتنا ، لا تستقل بتخريج الرجال العظام ولا بتكميلهم في التربية والتعليم فان كثيرا من المتخرجين في مدارس أوربة الجامعة يكونون لصوصا وفوضويين وفجرة يفسدون في الارض ويسفكون الدماء . المدارس تفتح للطلاب ابواب العلم ، وتدلهم على طرق العمل لانفسهم ولقومهم أو جنسهم ، ولكنها لا تبوئهم تلك البيوت ، ولا تقودهم في تلك الطرق حتى توصلهم الى غاياتها ، وانما ذلك عليهم لا على المدارس ، وان بعض المديرين لشؤون المدارس أو المسيطرين عليها قد يريدون من تربية الناشئة وتعليمهم مالا تريده تلك الناشئة لانفسها لو عقلته وعرفت عاقبته . فينبغي للاذكياء من طلاب العلوم ان يكونوا على بصيرة في تعلمهم وتربيتهم ، وأن يعلم كل واحد منهم أنه لا ينال الكمال

الممكن الا بجده الشخصي وعنايته بتربية نفسه وتكميلها

وربوا عقولكم على الاستقلال في الفهم ، والاستدلال على المطالب ، لتكونوا علماء بأنفسكم ، لا نقلة تحكون علم غيركم ، ليكن العلم صفة من صفاتكم لا صوراً خارجية تعرض على مرآة أذهانكم

وربوا أنفسكم على الفضيلة والتقوى وعلو الهمة وقوة الارادة ومضاء العزيمة ، لتكونوا كملة في أنفسكم ، وقدوة صالحة لامتكم ، إنني أعلم انا كثر طلبة العلم منكم ومن غيركم يطلبون العلم لاجل المعاش لا لاجل تكميل النفس بالفضيلة ، ولا لاجل النهوض بالامة ، وأعلم مع ذلك أن الناس معادن كمادن الذهب والفضة (كما ورد في الحديث الشريف) وأن من كان معدنه شريفا وجوهره كريما لا يرضى لنفسه اذا عرف مزايا جوهرها أن تكون في مرتبة المعادن الخسيسة

لا أقول إن من يطلب العلم الدنيوي لاجل الكسب يكون خسيسا مذموما فان الكسب مطلوب بل ضروري ولا بد في اتقان أسبابه من العلم ، فمن يطلب العلم ليكون حاكما أو طبيبا أو مهندسا أو صيدليا أو تاجرا أو قائما بغير ذلك من أعمال العمران حقيق بأن يكون محمودا في علمه وعمله ، ولكنه لا يفضل من هذه الجهة العوام والاميين الذين يعملون ما لا يتوقف على تعلم المدارس من أعمال العمران كالفعلة وصغار الصناع والزراع من حداد ونجار وخباز ووقاد في سفينة أو قطار أو حمام ، كل من يؤدي للأمة عملا من الاعمال التي تحتاج اليه يكون جديرا بالشكر والثناء على قدر اتقانه له وبذل جهده فيه ، وباللوم والذم على قدر تقصيره فيه ، ووقوفه دون الغاية التي يستطيعها من إتقانه ، ولكن المتعلمين في المدارس العالية يجب أن تكون خدمتهم لأمتهم أرقى من خدمة الفعلة والصناع من العوام ، يجب ان يكون نفعهم متعدياً ، يجب أن يكونوا قدوة لغيرهم في الفضائل والآداب ، والقيام بالمصالح العامة ، والمنافع المشتركة ، يجب أن يكونوا بذلك مربين لها ، وعمالا لرفع شأنها ، ولا يكونون كذلك الا اذا عنوا بتربية أنفسهم على الفضيلة والتقوى ، فاننا نرى كثيراً من الذين تعلموا في أرقى مدارس الاستانة ومدارس أوربة العالية كانوا بفساد تربيتهم وبالاً على الامة إما بسوء أخلاقهم وإتجارهم بمصالحها ، وإما بفسقهم واستهانتهم بشريعتها وشعائرها، فيجب أن تراعوا في تربيتكم لأنفسكم ، نسبتكم الى أمتكم ونسبتها اليكم ، وان تتقوا التقليد الذي يبعدكم عن مقوماتها ومشخصاتها ، وتوخوا أن تكونوا معها كبيوت النحل المسدسة الشكل لكي يتصل بعض طبقاتها ببعض ، وان تمايزت الطبقات أو

الافراد في أنفسها بالعلم والحكمة كما تمتاز بعض بيوت النحل بوجود العسل فيها على ما لا عسل فيه

لا يتفاضل البشر في شيء كما يتفاضلون في نفع الناس والقيام بمنافعهم العامة ومصالحهم المشتركة ، وان أمتنا لتشكو من قلة العاملين للمصلحة العامة ما لا تشكو من قلة العاملين بها ، فلو كان فينا كثيرون يعملون بما يعلمونه من مصالح الامة ويؤثرون ذلك على أهوائهم لما كنا في هذه الحال السوءى التي نشكو منها . قال بعض علماء أوربة وكبرائها للاستاذ الامام . انا نرى فيكم من نذاكرهم فيجاروننا في كل علم ونراهم يفهمون المصالح والامور كما نفهمها سواء، فما هي علة تأخركم عنا ؟ الجواب الذي اتفق عليه العالمان المسلم والافرنجي أن علة ذلك هي كثرة العاملين للمصلحة العامة في الافرنج وندرتهم فينا

ينبغي لكل من كان كريم الجوهر عالي الهمة أن ينوي ويقصد المنفعة العامة في كل عمل يعمله، فان أقل فائدة ذلك أنه يرقي نفسه ويزيده كمالا وان لم يتم له ما ينوي ، لا يوجد عمل من الأعمال يتعذر فيه قصد المنفعة العامة ، واني اضرب لكم مثلا واقعاً على هذا من أغرب ما يؤثر عن الامم الحية . حدثني الاستاذ الامام أنه في بعض أسفاره أراد اختبار بعض أفراد الطبقة الدنيا من الافرنج وكان راكباً في سفينة انكليزية فسأل وقادا فيها عن عمله الشاق وأجرته عليه ، ثم سأله . هل ترجو ارتقاء في حياتك هذه ؟ قال نعم . انني أفكر في عمل عظيم ، وأسعى الى ارتقاء كبير . قال الاستاذ . ما ذاك ؟ قال الوقاد انك تعلم أن معادن الفحم الحجري محدودة، وانهم يقدرون لها النفاد في قرون معدودة ، فانا افكر في طريقة للاقتصاد في انفاق الفحم تكون به امتنا الانكليزية أغنى الامم به ، واستفيد انا من هذا الاختراع ثروة كبيرة ومجدا عظيما . فتأملوا رعاكم الله كيف توجهت همة ذلك الرجل الذي هو أدنى الناس حرفة وعملا الى أن ينفع أمته المنفعة الفنية ويحمي ثروتها ويجعل الامم والدول في حاجة اليها ، وان ينفع نفسه من طريق نفع قومه ، وهو لم يتجاوز بذلك حدود عمله ، ولم يدفعه الغرور الى الاشتغال بما لا يعد من أهله ، أفيعجز كل فرد من أفراد المتعلمين أن يكون له مثل هذه النية الحسنة ، والهمة العالية ؟

أيها الطلبة النجباء ! إن شعوب البشر متقاربة في الاستعداد للكمال الانساني، وانتا معاشر الشرقيين عامة ، والمسلمين خاصة ، ما سبقتنا الامم التي نراها الآن أعلى منا الى العلوم والحضارة لأن استعدادنا الفطري دون استعدادها ، فعليكم ان تتفكروا

دائما في استعدادكم ، وان تستعملوه في طلب الكمال لا نفسكم وأمتكم ، وانتم قادرون على ذلك

ولم أر في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

واعلموا ان قيمة الذي يتعلم لاجل أن ينال قوتا مضمونا من الحكومة أو من غير الحكومة لا تكون الا بقدر جثته التي يسعى لتغذيتها ، وانها لقيمة قليلة لا يفضل بها الثور ولا الحمار الذي يأكل أضعاف ما يأكل الانسان ، ولا يتألم كما يتألم الانسان، ومن تعلو به همته فيطلب أن يكون وجوده أوسع من محيط جسمه فانه ينال ما يطلب، فاذا هو قام بنفع بلده كان وجوده بقدر بلده بحيث يكون ذكره مالئا له ، واذا هو قام بخدمة أمته كلها ، بعمل نافع يعمله لها ، فان وجوده المعنوي يكون واسعا بقدر سعة أمته كلها ، لا يجهل ذلك قطر من أقطارها ، واذا هو استطاع ان ينفع جميع البشر فليفعل ، فان وجوده يكون بقدر العالم الذي انتفع به ، وامثال هؤلاء الرجال هم الذين يوزن الواحد منهم بأمة ، قال تعالى « ان إبراهيم كان أمة » وقال في عباد له أعدهم لنفع الامم « ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » وعلمنا ان ندعوه بقوله « واجعلنا للمتقين إماما » فعليكم ان تربوا أنفسكم على علو الهمة ، وخدمة الامة ، لتكونوا من الأئمة

ان الانسان لا يكون قدوة في الخير نافعا للناس الا اذا كان فاضلا كريم الاخلاق، وان مساوي الأخلاق تشين العالم ، أكثر مما يشين الجهل رب الاخلاق الكرائم، ولا يفسد الامم شيء كفساد أخلاق علمائها وحكامها وزعمائها ، فاذا قصرتم في تربية ملكة الفضيلة في أنفسكم ، فانكم تضرون أكثر مما تنفعون بعلمكم ، اما الطريق الذي ينبغي أن يسير عليه المرء في تربية نفسه فهو أن يلتزم الاعمال التي تطبع ملكتها في النفس ويتكلفها ويواظب عليها ، ولا يتساهل في كبير ولا صغير منها ، وان يجعل له مراقبا من إخوانه يذكره اذا نسي ، ويلومه اذا تساهل، وأذكر لكم على سبيل المثال ما جربته بنفسي : قلت لرفيق لي في طلب العلم اذا قدرت ان تحفظ علي كذبة واحدة فلك حكمك في الجزاء عليها ، قلت له هذا وما انا بآمن على نفسي من فلتات اللسان ، ونزغات الشيطان ، وانما اردت ان يكون ذلك حاملا لي على شدة الاحتراس من الكذب الذي هو شر الرذائل وأشدها ضررا ، وأحمد الله أنه لم يستطع ان يحفظ في السنين الطوال التي عاشرني فيها كذبة ما ، وما أبرئ نفسي

ولا أزكيها بهذا ، وانما اريد ان اذكركم ايها الاخوة النجباء بما جربته واستفدت منه لعلكم تعتبرون

الفضيلة والتربية الدينية

لا فضيلة الا بالدين فمن لم يترب تربية دينية لا يكون على شيء يعتدّ به من مكارم الاخلاق ، وقد ينشأ بعض الناس على الفضائل والآداب الدينية ثم يعرض له الشك في دينه او الجحود في الكبر ، ولكنه اذا استطاع التفلت من جميع عقائده ، لا يستطيع التفلت من جميع فضائله ، وقد يغتر هو بنفسه او يغرّ غيره بما بقي له من آثار صبغة الدين فيقولون ان الكفر قد اتفق مع الفضيلة ، ويغفلون عما يحدثه له هذا الكفر من انواع الرذيلة ، وقد يسمون بعض الرذائل بأسماء الفضائل او يعدونها منها ،

يوجد أفراد من الملاحدة في البلاد الغربية يزعمون أنه يمكن أن يستغنى في تربية النفس عن الدين ، بأن يقام بناء الفضيلة على اساس العلم والعقل ، بأن يقنع المربي من يربيه بأن الرذائل ضارة بفاعلها ، أو بالهيئة الاجتماعية التي يعيش فيها ، وان الفضائل دعائم المصالح والمنافع ، كأن يقال له إن الكذب قبيح متى عرف به امرؤ بطلت الثقة به ، ومن لا يوثق به تفوته منافع كثيرة ، ويكون محتقرا في أنفس الناس ، ويقال له نحو هذا في مدح الأمانة والترغيب فيها ، ويرون ان هذا النحو من التربية أفضل وانفع من التربية الدينية التي اساسها عندهم التخويف من عقاب الآخرة ، وقد سمعنا بعض مقلدتهم من المتفرنجين يلوكون أمثال هذه الكلمات ويتشدقون بها ويرون انهم ينطقون بالحكمة ، ويرفضون قواعد الفلسفة

كان سبب حدوث هذه الأفكار في أوربة ما سبق من ضغط رجال النصرانية في القرون الخالية على رجال العلم ، واحرار الفكر ، اذ كانوا يقتلونهم تقتيلا ، ويحرقونهم بالنار أحياء ، فكان من مقتضى سنة ردّ الفعل ان يغلو أحرار الفكر من المارقين من النصرانية في ذم الدين والتنفير عنه ، وقد وجدوا في كتب ذلك الدين وتقاليده وسيرة بعض رؤسائه مجالا واسعا للطعن والتنفير ، ومع هذا كله لا يزال السواد الأعظم من الشعوب الافرنجية كافة يربون أولادهم من النشأة الأولى على آداب الدين وفضائله ولا سيما الانكليز والجرمانيين منهم ، ويخصون الاناث بمزيد العناية في التربية الدينية لأنهن هن اللواتي يربين الأولاد في الطور الأول من حياتهم ،

ويؤثر عن الفيلسوف سبنسر - أكبر علماء الاجتماع والتربية في هذا العصر - انه قال ما معناه : ان بعض الناس يريدون تحويل تربية الفضيلة عن اساس الدين الى أساس العلم ، واذا وقع هذا بالفعل يقع به الناس في فوضى أدبية لا يعلم أحد عاقبتها (١)

مالنا ولكلام الناس واقوالهم ، انا نعلم بالنظر والاختبار أن إقناع جميع طبقات الناس بنفع الفضائل وضرر الرذائل وحملهم على العمل المطرد في ذلك مما لا سبيل اليه ، ولا مطمع فيه ، فالولدان لا يعقلونه ، وبلداء العوام وجماهير الشعوب الهمجية لا يفقهون به ، واكثر الاذكياء يجعلون أنفسهم معيار النافع والضار ، فيؤثرون ماينفعهم وان أضر بغيرهم ، ويطبقون ذلك على قانون فضيلة المنافع بالتأويل ، فاذا قدر الواحد منهم على أكل مال غيره بالباطل أو خيانته في عرضه وأمن اطلاع الناس عليه خان في المال والعرض ، واول ذلك في نفسه بأنه هو أحق بالمال واجدر به ، لانه يضعه في مصارفه التي هي انفع للناس وله ، ويزعم ان صاحب المال لا يقدر على أن يأتي بمثل نفعه وعمله ، ولا يأبى ان يقول ان الخيانة في العرض لاضرر فيها ، لانه يفسر الفضائل والرذائل بحسب الشهوة والهوى ، وقد صرح أمامي من يعد في الطبقة العليا من حرية الفكر بأن أكل مال الناس بالباطل (أي بدون مقابل ولا تراض) يعد من الفضيلة ، اذا كان سارقه أو ناهبه أو الخائن فيه ينفقه فيما يراه أنفع للهيئة الاجتماعية مما ينفقه فيه صاحب المال ، ولا يخفى على عاقل ان الناس يختلفون اختلافا كبيرا في النافع والانفع وضدهما فما يراه بعضهم نافعاً يستحق الشكر ، قد يراه بعضهم ضارا يستحق فاعله القتل ، فاذا لم يكن لهم دين يحكم كتابه بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وحرروا على استباحة كل منهم مايرى أنه ينفع به مالا ينفع غيره ، ألا يكونون في فوضى وخيانة تفسد عليهم أمرهم ، حتى يأذن الله بهلاكهم ؟

يقول غوستاف لوبون في كتابه (روح الاجتماع) ان بعض القضاة عندهم في (فرنسة) احصى عدد المجرمين الذين حكمت عليهم محكمة الجنايات فكان ثلاثة ارباعهم من المتخرجين في المدارس العالية والربع من عوام الناس ، ونحن نعلم ان

(١) كنت أريد ان أذكر في هذا البحث كلمة الفيلسوف ابن رشد - اشهر حكماء عصره - ثم نسيتها وهي ان الفيلسوف الحقيقي لا يجيز ان يجعل الدين على الشك والاثبات ويوضع موضع البحث لان ذلك يتضمن جعل مبدأ الفضيلة واساسها موضع الشك وذلك هدم للفضيلة اه بالمعنى ومثله ان يتشكك المريض في أصل الطب ويحمل على ان لا يقبل المعالجة والدواء الا بعد البحث في علم الطب نفسه واقامة الحجة على نفعه

الذين لايجرمون من هؤلاء المتعلمين الماديين لايصدهم عن الاجرام والجناية الفضيلة وانما يصد بعضهم خوف الفضيحة او عقاب الحكومة اذا ظهرت الجناية ، وبعضهم اشتغاله بعمل يصرف عنها ، وعن الشعور بالحاجة اليها ، وبعضهم تأثير التربية الدينية الاولى ، ولا يكاد يتعفف عن الرذيلة أحد تدفعه شهوته اليها وتقربه أسبابها منها ، الا المتدين الذي يراقب الله تعالى ويخشاه ، أو الفيلسوف العالي النفس اذا ثبت عنده انها رذيلة ، والا فانا نرى سيرة كثير من الفلاسفة ملوثة بالرذائل الكثيرة ، وهذا من معنى قولنا ان الفضيلة القائمة على قواعد الدين تكون عامة ينتفع بها جميع طبقات البشر في بداوتهم وحضارتهم بقدر حظهم منها ، وأما الفضيلة العقلية النفسية المحضة فلا تكون الا خاصة ببعض أفرادهم الممتازين ، على مايعرض فيها من سوء التأويل

أضرب لكم مثلا رجلافقيرا بائسا من بلدنا (القلمون) يكنى « أبا حطب » كان يحمل الخضر والفاكهة على ظهره ويصعد من بساتين القلمون او طرابلس الشام الى جبل لبنان ينتقل بها من قرية الى قرية لبيعها وأكل من ربحها ، شب وشاب على ذلك — هذا الرجل البائس وجد مرة في شارع من شوارع ميناء طرابلس خالمن الناس كيسا كبيرا مملوءا بالنقود الذهبية (الليرات) فتناوله ووضعه في سلة الخضر التي يحملها على ظهره وبقي يسير الهوينا على عادته الى أن رأى في الطريق رجلا روميا ملهوفا يعدو ويصيح « خرب بيتي » فعرف الرجل المسكين بالقرينة أنه صاحب الكيس تناداه — وهو لايلتفت اليه — فقال « ياخواجه تعال ياخواجه » فأقبل عليه الرومي فسأله ماذا ضاع لك ؟ قال كيس من الذهب فيه كذا من الليرات ، فأخرج له الكيس وقال : أهذا كيسك ؟ قال: نعم نعم قال خذه ، فأخذه الرومي ولم يعطه شيئا ، فسأله بعض الناس لماذا أعطيت هذا الرومي الخبيث الكيس وهو لم يعلم أنه كان معك ولو أخذته لأغناك عن بيع الخضر طول عمرك ، فقال اذا كان هو لم يعلم أنني أخذت الكيس فان الله علم بذلك وهو مطلع عليّ

هذا ماتعله البائس الفقير « ابو حطب » بوازع الدين وهو معطش القلب منشرح الصدر ، أفرأيتم لو كان قدتلقى من بعض الفلاسفة الماديين إنه لاإله ولا دين ولا حياة للناس بعد هذه الحياة وان الأمانة واجبة عقلا لأن الهيئة الاجتماعية لاتصلح بدونها، أكان يعطي الكيس لذلك الرومي وأكثر هؤلاء الاروام عندنا اشرار شرسون لايحبهم الناس ولا يرجون منهم خيرا ؟ لا والله ، بل لو وجده بعض القضاة الماديين الذين عهد اليهم إقامة ميزان العدل وإحقاق الحق لا كلوه فرحين مستبشرين

اكتفي بهذا البيان الوجيز في اثبات كون تربية النفس على الفضيلة لاتتم الا بالدين ، وكون كل دين من الاديان أعون عليها من تلك الفلسفة الناقصة ، التي لايمكن ان تكون عامة ، وان كانت الخرافات والتقاليد الوثنية في اكثر الاديان تنافي كثيرا من الفضائل ، وتكون مثارا لكثير من الرذائل

الفضيلة في الاسلام وقاعدة درء المفاسد وجلب المصالح

أيها الاساتذة والطلاب الكرام! ان عذر من قال من علماء الافرنج بالرغبة عن التربية الدينية الى التربية الملية هو أنهم وجدوا في الدين الذي نشأوا فيه وسائر الاديان التي عرفوها خرافات كثيرة تضل العقل وتحول بين البشر وبين كمال الانتفاع بمواهبهم وما سخره الله لهم من الكون ، وتقسر وجدانهم على قبول ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولو عرف هؤلاء العلماء حقيقة الدين الاسلامي من كتاب الله تعالى وسنة رسوله التي جرى عليها لما قالوا ذلك القول ولما ذهبوا الى ذلك المذهب على الاطلاق

لو عرفوا الاسلام من كتابه وسنته ـ لامن سيرة أهله في هذه الازمنة ـ لوجدوا في أصوله كل مايرونه نافعا من تربية النفس على اجتناب الرذائل والمفاسد لضررها ، والتزام الفضائل ومراعاة المصالح لنفعها ، فان بناء الاحكام والاعمال على قاعدة درء المفاسد والمضار وجلب المنافع ومراعاة المصالح ، من القواعد الاسلامية المتفق عليها ، ومن أصول ديننا ان الله غني عن العالمين رحيم بهم فما حرم عليهم شيئا الا لانه ضار بهم ، ولا أوجب عليهم شيئا الا لانه نافع لهم ، « يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وقال تعالى فيمن آمن من أهل الكتاب « الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم » وان المعروف هو ماعرفته العقول القويمة ، والطباع السليمة ، والمنكر ما أنكرته ، والطيب مايطيب للناس لنفعه ولذته والخبيث ضده ، وقد ضبط بعض علمائنا اثبات المنافع بخمس كليات وهي ١ حفظ الدين ٢ وحفظ النفس (أي حفظ ذوات الناس ان يتعدى عليهم بالقتل او الايذاء) و٣ حفظ العقل و٤ حفظ العرض و٥ حفظ المال

ان القرآن الحكيم قد قرن فريضة العبادات المحضة ببيان منافعها فقال « وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » أي ان الذي يقيم الصلاة على وجهها المطلوب تعلو نفسه وتزكو بمناجاة الله وذكره وتلاوة حكم القرآن وعبره ، وتصير

مراقبته تعالى ملكة له ، حتى تنفر نفسه من الفواحش والمنكرات ، وقال « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » فبين ان الصيام يقصد به تربية ملكة التقوى وهي ان يملك الانسان نفسه وهواه فيسهل عليه اتقاء مايضره ويشينه في دينه ودنياه ، وذلك أن من تعود ترك الشهوات التي لا يستغني عنها لحفظ شخصه وحفظ نوعه وهي الاغذية والوقاع يكون أقدر على منع نفسه عن غيرها من الشهوات والأهواء الضارة غير الضرورية ، ومما جاء فيه عن الحج قوله «ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في ايام معلومات » الخ وأما الآيات في فوائد الزكاة وبذل المال في سبيل الله ـ وهي سبيل الحق والخير ـ فكثيرة . فاذا كان هذا الكتاب الحكيم يعلل امهات العبادات ببيان منافعها وفوائدها فهل يأبى أن تعلل الاحكام الدنيوية والآداب الاجتماعية بالمنافع والفوائد ؟ كلا انه ارشدنا اليها مثل قوله « ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » ومثل قوله « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض »

أيها الاخوة الكرام !

لا يمكنني في هذا الوقت القصير ان أطيل الشواهد على موافقة اصول الاسلام وفروعه للعقل والفطرة البشرية ومصالح الناس ومنافعهم وانما اقول اني مستعد لاقامة الحجة على كل من يدعي خلاف ذلك في عرضت له شبهة فيه فيوردها علي في حال القرب ، وليكتبها الي في حال البعد ، وانا زعيم ان شاء الله تعالى بكشفها واقناعه بها ، اذا كان طالبا للحقيقة بالاخلاص ، وقد جرى هذا مع كثير من الشرقيين والغربيين

كان لي صاحب في مصر من احرار الانكليز اسمه مستر انس كان وكيلا لنظارة المالية ، وقد جرى بيننا مذاكرات كثيرة في المسائل الدينية وغيرها وكان كثيرا ما يعترض على بعض المسائل الدينية في الاسلام أو في كل دين وكنت اذا بينت له حقيقة الاسلام فيها يتعجب ويقول لي تارة « هذه فلسفة لا دين » وتارة « هذا رأيك وفلسفتك ما هو الاسلام » وقال لي مرة « اذا كان هذا هو الاسلام فانا مسلم » ومرة أخرى « اما ان اكون انا مسلما واما ان تكون أنت كافرا » ومرة ثالثة « ما اسمع مثل هذا الكلام المعقول عن الاسلام الا منك أومن الشيخ محمد عبده اظن لا يوجد مسلمون غيركما » ومرة رابعة « أرأيت اذا سألت عن هذا بعض علماء الازهر أيقول هذا الذي قلته ؟ اذا قال هذا علماء الازهر فانا أكون مسلما »

اني بهذه التجارب وبما أعلم من حقيقة الاسلام وموافقته لفطرة البشر ومصالحهم

ومن حاجتهم الى الدين بمقتضى فطرتهم ، وبما في القرآن من الوعود الصادقة ـ بهذا كله اعتقد ان الاسلام سينتشر في جميع الامم الغربية والشرقية ، وما حجب امم الحضارة عن محاسن الاسلام الا سوء حال المسلمين والجهل بحقيقته وتنفير دعاة الدين ورجال السياسة عنه وعن أهله

انا نحن المسلمين قد صرنا حجة على ديننا بما فشا فينا من البدع والخرافات ولو كنا مستمسكين بعروته ، محافظين على سننه ، لعم الخافقين ، فان انتشاره السريع في العصر الأول لم يكن الا بحسن حال أهله وفضائلهم وأعمالهم كما اشرنا الى ذلك في الكلام على نشأة الاسلام وفصلناه بعض التفصيل في خطبتنا الختامية لاحتفال جمعية ندوة العلماء ، وقد وصلنا الى دركة من الانحطاط صار فيها الوثنيون في هذه البلاد ارقى من المسلمين علما وعملا واتحادا ، هؤلاء الذين لا يزال الملايين منهم يسيرون في الاسواق والشوارع مكشوفي العورات ، عراة الاجسام ، حفاة الاقدام ، موسومي الجباه بأصباغ الاصنام ، بل صار هؤلاء الذين يعبدون الأحجار والأنهار والاشجار والقرود يطمعون في إدخال المسلمين في دينهم ، وقد صاروا يتصدون الى دعوتهم ، وقد بلغني هنا انه دخل في دينهم طائفة ممن يعدون من المسلمين ، وان لم يكونوا منهم الا في الاحكام الرسمية ، والاحصاآت الجغرافية ، ولا يوجد شعب اسلامي محتاج في حياته السياسية والاجتماعية الى الدين كاحتياج مسلمي الهند ، فانهم اذا أحيوا الاسلام فيما بينهم تعود كثرة الوثنيين الى قلة وقلة المسلمين الى كثرة « وانما العزة للكاثر » كما قال الشاعر العربي

هذا وانه لا حياة للاسلام ، الا باحياء هداية القرآن ، ولا تحيا هداية القرآن الا باحياء اللغة العربية ، ومن حسن حظكم أن حكومتكم راغبة في إحياء لغة دينكم ، فاذا قصرتم فيها فلا عذر لكم ، عليكم ان تحيوها في هذه المدرسة التي هي اكبر المدارس الاسلامية في الهند ، عليكم ان تتعلموها كما تتعلمون اللغة الانكليزية بالتكلم والقراءة والكتابة ، اذا كنتم محتاجين الى اللغة الانكليزية لأجل دنياكم ، فانتم محتاجون الى اللغة العربية لاجل دينكم ودنياكم ، فالحياة الصورية المادية ، لا تقوم وتثبت وتنمى الا بالحياة الأدبية المعنوية ، والا فان الوثنيين قد سبقوكم في جميع العلوم والاعمال الدنيوية ، وهم اكثر منكم عددا ، وأوفر مددا ، ولم يبق أمامكم الا قوة دينكم ، تنالون بها ما تريدون في دنياكم وآخرتكم ، لانها قوة الحق والخير وهي اكبر قوة في الكون

العزيمة وتربية الارادة

اشرت في سابق كلامي الى ما يجب من تربية الارادة ، وإحكام ملكة العزيمة ، وهذا النوع من التربية هو العزيز النادر الذي يقل فيناس يفكر فيه ، وفي الحاجة الشديدة اليه ، وقد رأيتني مضطرا الى التنويه بعد تذكير الطلبة النجباء بالواجبات التي تطالبهم بها أمتهم وملتهم ، فان ضعيف الارادة يستكبر هذه الواجبات ، حتى يعدها من المحال ، الذي لايدرك ولا ينال ، وأما قوي الارادة فانه يراها من أقرب الامور منالا ، واسهلها طريقا ، وهو لايأبى ركوب الصعاب ، واقتحام العقاب ؛ ، في المهامه الطامسة الاعلام ، البعيدة الارجاء ، اذا ظن انه يدرك بها الامل وينال الرجاء

ايها الطلبة النجباء !

لايتفاضل الناس في شيء تظهر به مزاياهم كتفاضلهم في قوة الارادة ، وما آتى الله الانسان قوة يعلو بها شأنه ، ويظهر بها استعداده ، كقوة الارادة ، بقوة الارادة تصرف الانسان في الطبيعة ، وسخر لنفسه أنواع الخليقة ، وعمل بعض افراده من الاعمال ، مالا تعمله الامم في الاجيال ، وقد عبر بعض كبار الصوفية عن سرّ الله الاعظم في ارادة الانسان بكلمة كبيرة جدا قد يستنكر ظاهرها ويعدساءة ادب مع الباريء عز وجل ولكن هذا ان عد من لوازم الكلمة فهو ليس مرادا لمن قالها . تلك الكلمة الكبيرة هي قوله « ان لله عباد (١) اذا أرادوا أراد » يعني ان أصحاب الارادة اذا جزموا ارادتهم بأن كذا لابد ان يكون فان ذلك يكون سببا كافيا لان يكون وتتعلق ارادة الله تعالى بحسب سنته في خلقه ، فكأن ارادتهم شعبة من الارادة الالهية ، اولئك اصحاب العزائم الذين تشهد لهم أعمالهم العظيمة ولا شهادة أبلغ من شهادة الاعمال

أيها الشبان النجباء : اعلموا أن من فقد ارادته فقد نفسه ، وكان آلة في يد غيره او تابعا لهوى نفسه ، ولا يمكن ان يكون رجلا عظيما ، ربوا إرادتكم بحملها على ترك الهوى الباطل ، وتعويدها حمل المكاره في سبيل الحق والخير ، لتكونوا مالكين لأنفسكم لا مملوكين لها ، ومن كان عاجزا عن التصرف في نفسه ، فهو جدير بان يكون أعجز عن غيره ، ضعيف الارادة لا يكون الا نذلا جبانا ، والجبان لا يكون

(١) روينا الكلمة بالسكون لاجل السجع وهو موافق للغة ربيعة والا فالقياس ان يقول « عبادا » ويصح ان يقول حينئذ « ارادا » في السجعة الثانية

الاخائنا او منافقاء فعليكم بالشجاعة والعزيمة والنجدة وعلو الهمة ، فبغير هذه الصفات لا تظهر مزايا الانسانية فيكم

لا تهولنكم الواجبات التي تطلبها الامة منكم فان الارادة الصادقة لا يقف امامها شيء ، الارادة الصادقة أعظم قوة خلقها الله في هذه الارض ، فلا تملوا عن تربيتها في انفسكم والاستفادة منها في بلادكم ، وقل من صدقت ارادته في طلب شيء ولم ينله ، لاسيما اذا طلبه من أسبابه ، ودخل عليه من بابه ، ان مدرستكم هذه شاهد من أصدق الشواهد على صحة ما أقول ، فانتم تعلمون ان مؤسسها السيد احمد خان رحمه الله تعالى قد صادف في سبيلها المصاعب ، واحتمل المتاعب ، ولولا قوة ارادته وثباته لقضي عليها في طفوليتها ، فهو بما كان عنده من العزيمة والثبات قد غالب المصاعب وصارعها ، حتى غلبها وصرعها ، ووصلت المدرسة الى الدرجة التي ترونها من السعة والعظمة ويرجى لها المزيد ، فهل كان يخطر مثل هذا في بال أحد من الجبناء أصحاب الارادة المريضة في طور تأسيس هذه المدرسة ؟ ولو قصد السيد أحمد خان ماهو أعلى من ذلك وأعم فائدة لناله بقوة الارادة ، وقد علمتم أن المدرسة أنشئت لغرض لا بد للمسلمين في الهند منه فكانت الطريق الموصل اليه ، وان هذا الغرض ليس هو كل المطلوب لامة مثل أمتكم هي في بلادكم على خطر اجتماعي واقتصادي بسبق الوثنيين لكم في العلم والثروة والاتحاد على كثرتهم وقلتكم ،

اني كررت النذر ورددت الذكرى عسى أن تسموا بأصحاب الاستعداد منهم الى تربية أنفسهم ، واعدادها لخدمة أمتهم وملتهم ، وعدم الرضا لها بالضعة والخمول ، والقناعة بترفيه هذا الجسد الحيواني باللباس والقوت ، كونوا قدوة صالحة لامتكم بالفضيلة والتقوى والمحافظة على شعائر الدين وفرائضه ، كونوا مستقلين في عقولكم وأفكاركم ، مستقلين في ارادتكم ، بحيث لا تخافون في سبيل الحق والمصلحة لومة لائم ، واياكم والتقاليد والبدع الغريبة التي تبعد أهل ملتكم عنكم وتبعدكم عنها ، كونوا جامعين لا مفرقين ، كونوا مرشدين للامة في العلوم العصرية التي تنمي الثروة ، وترقي جميع مرافق البشر ومنافعهم ، ولا تكونوا بسيرتكم الشخصية منفرين لهم منها ، ان المسلمين في بلادكم انقسموا في كل بلاد دخل فيها التعليم الاوربي الى ثلاثة أقسام ، قسم فتن بالجديد فمقت كل القديم ، وقسم جمد على القديم فهو ينفر من كل جديد ،

وقسم معتدل بينهما ، يأمر بالمحافظة على القديم النافع وترك الضار منه بالتدريج ، واضافة ما لا بد منه من الجديد بشرط حفظ مقومات الامة ومشخصاتها والحذر من فنائها في غيرها ، فكونوا من المعتدلين الجامعين فأنتم في قومكم أعرف من غيركم بالحاجة الى هذا الجمع ، وخطر الخلاف والتفرق ، وأمامكم الامة الانكليزية في سيرتها وأخلاقها عبرة لكم لاتضاهيها عبرة ، انها لا تترك شيئاً من عاداتها ولا تقاليدها ولو الى أحسن منه الا اذا اضطرت اليه فانها تأتيه بالتدرج والا أصرت عليه كما تصر على مقاييسها ومكاييلها ولا تتركها الى المقاييس والمكاييل التي هي خير منها ، والعاقل من اعتبر بغيره والله الموفق وإياه أسأل أن يتم النفع بكم لامتكم انه سميع مجيب

بشائر عيسى ومحمد (*)

﴿ في العهدين العتيق والجديد ﴾

(١) ما يدرينا أنه وحيٌ ولم يصل إلينا ذلك مع العلم بأن نفس كتاب الاناجيل اعترفوا بأنهم لم يكتبوا كل ما قاله المسيح أو ما فعله فقال يوحنا انه لم يكتب كل ما فعله المسيح وأن أعماله كثيرة جداً لا يسعها العالم فلا بد أن كثيرا من أقواله التي قالها حين فعل هذه الاعمال لم تكتب أيضا (يو ٢١: ٢٥)

على أن المسيح صدق ما فيها من الشرائع والنبوات فقط كما في انجيل متى ٥: ١٧ و ١٨ ولم يتعرض للتاريخ الذي فيها بشيء كهذا الذي في انجيل متى فان كثيرا من هذا التاريخ غير صحيح وبعضه خرافي لا يمكن أن يقره المسيح كقصة شمشون ودليلة (قض ١٦: ٤ ـ ٢٢) ووقوف الشمس ليشوع (يش ١٠ : ١٣) وغير ذلك كثير

(٢) لماذا لم يوبخ المسيح اليهود على الكتب الابوكريفية (الكاذبة) التي كانت في الترجمة السبعينية وقتئذ وكانت مسلمة عند اليهود والنصارى كما هي مسلمة عند الكاثوليك والأورثوذكس إلى اليوم ؟ فان قيل إنهم ربما لم يكونوا

(*) تابع لما نشر في الجزء السابع ص ٤٩٤ للدكتور محمد توفيق صدقي

يعتقدون أنها ملهمة من الله في ذلك الوقت . قلت وربما إنهم أيضا لم يعتقدوا صحة نسبة هذه الكتب الى موسى عليه السلام واذا كانوا يسمونها (كتب موسى) فذلك لان أهم ما فيها هو تاريخه وتاريخ أمته عليه السلام كما يسمى تاريخ المسيح وتعاليمه إنجيله (غل ١ : ٧) مع أنه لم يكتبه بنفسه فيجوز أنهم ما كانوا يعتقدون أنها إلهامية ويجوز أنهم ما كانوا يضمونها إلى سفر التثنية في مجلد واحد وقد يكون هذا الضم وهذا الاعتقاد في إلهامها وصحتها إنما نشأ بعد المسيح عليه السلام في أواخر القرن الاول فبدأوا حينئذ يعتقدون أن موسى هو كاتبها لاغيره ثم تبعهم النصارى في ذلك وجاروهم ليستميلوهم لدينهم ولأنهم كانوا منهم

(٣) لماذا لم يبين المسيح للمرأة السامرية التي سألته عن اختلاف اليهود والسامريين في جبلي عيبال وجرزيم — لم يبين لها بيانا صريحا المحق من المبطل ولم لم يذم المحرف منهما ويشنع به (يو ٤ : ٢١) ؟ ؟ (١)

(١) حاشية : مما قاله عيسى عليه السلام لهذه المرأة السامرية كما في انجيل يوحنا ٤ : ٢١ « يا امرأة صدقيني انه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للاب » وهذه العبارة تتضمن الاشارة الى الحنيفية الاسلامية التي تجعل السجود لله في كل مكان والقبلة فيها الى مكة لا الى أورشليم ولا الى غيرها . واليهود والسامريون الذين أسلموا صاروا يسجدون لله متجهين الى الكعبة . وهذه القصة السامرية تدلنا على السبب الحقيقي الذي حمل عيسى لا يبالي بالتصريح ببيان المكان الذي ينبغي أن يسجد فيه لانه علم أن الشريعة الموسوية في هذه المسألة زائلة والشريعة الباقية التي ستأتي يسجد بحسبها الناس في كل مكان والى غير أورشليم ولغير جبل السامريين . وهذا السبب بعينه هو الذي حمل عيسى على عدم بيان الكتب الابوكريفية وغيرها التي يتخبط في شأنها النصارى الى الآن لانه علم أن جميع هذه الكتب ستستبدل بكتاب الله الذي قال فيه يو ١٦ : ١٢ و ١٣ « ان لي امورا كثيرة ايضا لاقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن . وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق لانه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية » ولا يصح حمل هذه العبارة على « روح القدس » كما تدعي النصارى لانه هو عين الله تعالى كما يزعمون ولا معنى حينئذ لقول المسيح « لانه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به » ولأنهم روح القدس هي لم يكن في زمن عيسى أو كان حوله شائقا عليهم فمحمد صلى الله عليه وسلم هو الذي كان يتكلم بما يسمع من وحي الله اليه « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى » وهو الذي بين للناس الحق من الباطل في أمر هذه الكتب وقال قرآنه « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون » وقال « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » وشرع للناس شرائع كثيرة فكأن عيسى عليه السلام لما علم =

(٤) إن المسيح عليه السلام وبخهم على إبطال شريعة موسى بتقاليدهم وأنهم

= أن هذه الكتب سيجعل محلها القرآن الذي قرب مجيئه وبعثة من هو مبشر به وأنها ليست باقية إلى الأبد بل سيستعاض عنها قريبا بالقرآن الذي سيبين أمرها ويبين كثيرا من صحيحها من فاسدها من فرغ جهده كله في تبيين حقيقة الدين وروحه وجوهره وفي أن الله لا يبالي بالصور والظواهر بل بالقلوب والنفوس وبالغ في إيضاح هذه المسائل حتى يرد اليهود عن غلوهم في اعتبار ظواهر الدين وقشوره (أو طقوسه ورسومه كما يعبرون) ليعد النفوس لقبول الشريعة الإسلامية المتوسطة بين الإفراط والتفريط والتي جمعت بين مطالب الروح والجسد وبين الظواهر والبواطن كما قال تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) وقد ترك عيسى عليه السلام بيان ما حل بهذه الكتب من الفساد لعلمه أنها كادت تنتهي وظيفتها وأنها زائلة قريبا وأن العبرة بجوهر الدين لا بقشوره كما ترك الإفصاح عن الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيه واختلف فيه اليهود والسامريون وسكوته يدل أن الشريعة الآتية الباقية ستعين موضعا آخر غير موضع اليهود والسامريين وأن أمثال هذه الاختلافات الجزئية ستزول بطبيعة الحال ويكفي أن يأخذ أتباعه لب الدين وجوهره لا يضيعوا أوقاتهم في الخلاف في جزئياته وقشوره حتى تتطبع نفوسهم على الأخذ بالروح حقيقة لا بالظواهر التي كانوا قد أهملوا كل شيء في سبيل العمل بها وحتى استعدت النفوس لقبول الحق وإعطاء الروح والجسد مطالبهما من غير إفراط ولا تفريط جاء محمد عليه السلام بالشريعة الوسطى وأرشد الخلق لجميع الحق كما تنبأ عيسى عليه السلام من قبل فتختم به حينئذ النبوة (دا ٩ : ٢٤) ويحفظ الله دينه إلى الأبد (دا ٢ : ٤٤)

ولو كان عيسى عليه السلام يعلم أن كتب اليهود ستبقى إلى الأبد لما ترك الناس حيارى في شأنها ولوجب عليه تبيين صحيحها من فاسدها حتى لا يبقى أتباعه في أمرها إلى الآن ضالين فيرفض بعضهم ما يأخذ به الآخرون ويعتقدون اليوم بكتاب منها أو بإصحاح فيظهر لهم غدا أنهم كانوا مخطئين فهم يلتمسون الحقيقة ولا يجدونها إلا بالأخذ بالإسلام وحينئذ يستريحون من عنائهم في هذه الكتب المجهول أصلها هداهم الله إلى سواء السبيل

هذا ولما كان مجيء الساعة التي يسجد فيها الناس لغير قبلة أورشليم وقبلة جبل السامريين حقا وأمرا مقضيا من الله ولا بد من وقوعه قال المسيح يو ٤ : ٢٣ (ولكن تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب) فكأن الساعة موجودة بالفعل وقت الكلام لتحقق إتيانها ولذلك قال (وهي الآن) وهذا يشبه قوله تعالى (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وورد أيضا في كتاب حزقيال مثل هذا فقال ٣٩ : ١ - ٨ (وأنت يا ابن آدم تنبأ على جوج وقل هكذا قال السيد الرب - إلى قوله - ها هو قد أتى وصار يقول السيد الرب هذا هو اليوم الذي تكلمت عنه) مع أن هذا اليوم لم يكن وقتئذ أتى ولا صار فيه شيء مما أنبأ به وإنما قال ذلك لتحقق حصوله فكذلك قول المسيح عليه السلام السابق وقد قال مثل ذلك أيضا في يوم القيامة كما في إنجيل يوحنا هذا ٥ : ٢٥ و ٢٨ فورد فيه ما يأتي (الحق الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون) إلى قوله فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته فقوله وهي الآن لتحقق إتيانها ولقربه بالنسبة لما مضى من الأزمان وكذلك قوله متى ٢٦ : ٦٤ (وأيضا أقول لكم من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسا عن يمين القوة وآتيا على سحاب السماء) مع أنه إلى زمننا هذا لم يأت المسيح على سحاب السماء

يعلمون تعاليم ليست من الله بل من الناس وأنهم يفعلون أمورا كثيرة مثل هذه (مرقس ٧ : ٦-١٣) فما المانع من أنه يريد بقوله (أموراً كثيرة مثل هذه) وقوله (تعاليم هي وصايا الناس) أنهم يكتبون أشياء وينسبونها إلى موسى عليه السلام مدعين أنها من الله وهي ليست منه بل هي من اختراعاتهم وقد سبق أننا قلنا أن ماعدا سفر التثنية من أسفار موسى الاخرى لم يكتبه هو بل تعتبر من التقاليد (الاحاديث) المروية بالرواية الشفوية ثم كتبت بعد فلعل ذلك هو المراد بقول المسيح (مر ٧ : ١٣) (وأموراً كثيرة مثل هذه تفعلون) على أن المسيح عليه السلام لم ينبههم الى ماوقع في نفس سفر الشريعة (التثنية) من الخطأ العلمي الصريح كالقول باجترار الارنب الجبلي (تث ١٤: ٧) لما ذكرناه هنا في الحاشية من ان هذه الشرائع كانت موقتة وانها زائلة بالاسلام (١) وأن محمداً سيبين لهم كل شيء كما قال عيسى عليه السلام (يو ١٦: ١٢ و١٣) لعدم استعدادهم في زمن المسيح لقبول ذلك

هذا وقد اعترف بطرس في رسالته الثانية بأن الناس كانوا يحرفون الرسائل والكتب فقال ٣ : ١٦ (كما في الرسائل كلها أيضاً متكلماً فيها عن هذه الامور التي فيها أشياء عسرة الفهم يحرفها غير العلماء وغير الثابتين كباقي الكتب ايضاً لهلاك أنفسهم) والتحريف هنا يشمل المعنوي واللفظي أيضاً وتخصيصه بالمعنوي لا دليل عليه فاذا كانوا يحرفون الأشياء العسرة الفهم في كتبهم في زمن الرسل أنفسهم كما يدل عليه هذا القول فما بالك بغير زمنهم بعد ان ماتوا وذهبوا ؟ وقال بولس ايضاً غل ١ : ٧ (انه يوجد قوم يزعجونكم ويريدون ان يحولوا «يحرفوا» انجيل المسيح) وهو يدل على ان رغبة الناس في تحريف الانجيل كانت قديمة منذ نشوء المسيحية ولا ندري اي انجيل من الاناجيل الكثيرة كان محبوباً عند بولس ويسميه (انجيل المسيح) ولعله كان احد الاناجيل التي رفضوها وسموها بالاناجيل الكاذبة

(١) حاشية : جاء الامر بالاسلام لله في أحد كتبهم فقال في سفر أيوب (ويظن انه كان الى ابراهيم) ٢٢ : ٢١ (تعرف به واسلم) وفي العبري وشلام أي كن مسلماً وهذا مصدق قوله تعالى (ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون)

وجملة القول في هذه المسألة أن المسلم لا يمكنه أن يثق بشيء مما يسمونه الآن التوراة والانجيل اليوم الا حل الشريعة الموسوية كما في سفر التثنيه وبعض أقوال المسيح ومواعظه كالتي في الاصحاح ٥ و ٦ و ٧ من انجيل متى فانا نرجح أنها صحيحة غير محرفة والقرآن الذي ثبتت صحته بالبراهين القاطعة هو الميزان الذي نورن به هذه الكتب فما صدقه منها كان حقا وما كذبه كان باطلا(وانزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا (١) عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون)

﴿ تذييل لهذا الفصل الثالث ﴾

وفيه مسألتان

(المسألة الأولى : في كتب الله . وفي تسمية المسيح بالكلمة)

يزعم بعض النصارى أن كتبهم المقدسة لا يمكن تحريفها ولا تبديلها لقوله تعالى (أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين * وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم)

---

(١) حاشية : المهيمن هو الرقيب والشاهد . فالقرآن المنزل من عند الله الرقيب على كل شيء يشهد على هذه الكتب بما فيها من الحق والباطل وبما يدخلها من الفساد فيقرر ذلك لنا ويعترف به اعتراف الشاهد الذي رأى وعلم بما يقرره فهو عليها رقيب شهيد . يحق حقها ويبطل باطلها . وكذلك الامة الاسلامية تشهد وستشهد على من سبقها من الامم الاخرى في الدنيا والآخرة بما أخبرنا الله تعالى من أحوالهم مع أنبيائهم . فالمسلمون وكتابهم وقرآنه شهداء على غيرهم وعلى كتبهم بما أعلمهم الله تعالى كالشهيد الذي يرى فيقرر ويعترف بما يوقن به . ولذلك قال تعالى (لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) فالشهادة هي الاقرار والاعتراف بما يرى أو يعلم باليقين كأنه مشاهد ومن ذلك قول المسلم (أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله)

أما كون كتب النصارى واليهود محرفة فهذا لا شك فيه كما سبق بيانه وأما كون التوراة والانجيل منزلين من عند الله لهداية الناس فهذا أيضا لا شك فيه وأما زعم أن القرآن لم يقل بتحريفهما اعتمادا على مثل الآيتين السابقتين فهو قول باطل لأن القرآن نص على تحريفهما في عدة آيات : منها قوله تعالى (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) وقوله (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) وقوله (يحرفون الكلم من بعد مواضعه) وقوله (يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم) وقوله (قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب) وغير ذلك كثير وهو دال على وقوع التحريف والتبديل في هذه الكتب والزيادة عليها والنقص منها وقد أثبتنا ذلك كله في هذا الفصل ولا يزال الانسان يطلع — كما قال تعالى — على خائنة منهم إلى اليوم

أما الآية السابقة التي تمسكوا بها في عدم تبديل كلمات الله فهاك معناها : —

قال تعالى (أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) فهم يعلمون ذلك لكثرة ما في كتبهم من البشائر بمحمد صلى الله عليه وسلم ودينه وأمته ووضوح ذلك فيه بحيث لا يمكن انطباقه على أحد سواه وسيأتي بيان ذلك في فصل البشائر ثم قال تعالى (وتمت كلمة ربك) أي تحقق وعده بمجيء محمد عليه السلام وقد ورد هذا اللفظ « تمت » بهذا المعنى أيضا في قوله تعالى في آخر سورة هود « وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » وقوله بعد ذلك (صدقا وعدلا) أي تحقق هذا الوعد وظهر صدقه وكان ما حدث من مجيء محمد وشريعته مطابقا لما أخبر به من قبل تماما بلا زيادة ولا نقصان فان معنى (العدل) المساواة كما في قوله تعالى (أو عدل ذلك صياما) أي ما يساويه من الصوم فوعد الله بمحمد تحقق بغاية الدقة والضبط وقد حدث كل ما أخبر به عنه في الكتب السابقة ولم يتخلف منه شيء فان وعد

الله لا يمكن أن يتبدل أو يتغير وليس لاحد أدنى قدرة على إخلاف ما أنبأ به تعالى ومصادمة الحوادث وتغييرها حتى لا توافق وعده فان كل ما قضاه تعالى لا بد أن يكون ولو حالت السموات والأرض والجبال دونه ولذلك قال تعالى (لا مبدل لكلماته) أي لا مغير لقضائه ولا مخالف لوعده فليس المراد بالكلمات هنا نفس الألفاظ والعبارات بل كل ما قضاه الله تعالى وحكم به وقدره فلا يمكن لأحد أن يمنعه من تنفيذه وقد ورد مثل هذا المعنى في قوله تعالى (سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم تأخذوها ذرونا نتبعكم ، يريدون أن يبدلوا كلام الله ، قل لن تتبعونا ، كذلكم قال الله من قبل) فالمخلفون لم يريدوا قط أن يبدلوا نفس ألفاظ قول الله وإنما ارادوا ان يعملوا بخلاف ما أمر به وقضاه فسمى ذلك تبديلا لكلام الله أي تبديلا لأمره وقضائه بأن لا يخرجوا للقتال مع رسول الله (ص)

فكلمات الله تطلق على عدة معان فقد ترد بمعنى كتبه وشرائعه وقد ترد بمعنى قضائه وقدره كما بينا هنا وقد ترد أيضا بمعنى مخلوقاته تعالى لأنها خلقت بكلمة (كن) فكلماته فهي توجد بمجرد صدور هذا الأمر منه بلا تباطؤ ولا تأخير . قال تعالى لمريم (كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون) فبكلمته تعالى خلقت السموات والارض كما قال داود في أحد مزاميره (مز ٣٣ : ٦) ومن ذلك تسمية المسيح بكلمة الله فانه خلق بدون أب ليكون آية للعالمين دالة على كمال قدرة الله تعالى على سائر الممكنات وتنبيه البشر إلى عدم الاغترار بمعلوماتهم وأفكارهم وإظهار أنهم لا يزالون عاجزين عن الاحاطة باسرار نواميس هذا الكون العظيم وسنن الله فيه وأنه تعالى قادر على خرق العادات ونقض ما يتوهمونه ناموسا لا يمكن نقضه لقصر عقولهم ونقص معلوماتهم التي اغتروا بها وظنوا أن الخالق تعالى مقيد بها وخصوصا في ذلك الزمن زمن انتشار الفلسفة اليونانية القائلة مثلا باستحالة الخرق على الاجرام السماوية وغير ذلك من أوهامهم الباطلة التي كانت عقبة في سبيل العقل البشري تحول دون ارتقائه وتوسعه في العلم والعرفان والابداع والاختراع

فما كان الناس يعدونه من المستحيلات خلق الحيوان بدون أب فأظهر الله

تعالى لهم بمسألة المسيح أن الامر ليس كذلك فاستمدت العقول للبحث والتنقيب حتى هدى الله الباحثين في المخلوقات إلى أمثال لذلك كثيرة فشاهدوا في بعض أنواع الحيوانات الصغيرة كقمل النبات مثلا (Aphides) ما يسمونه بالتولد البكري (Parthenogenesis) وذلك أن الانثى تلد بدون تلقيح الذكر ويتكرر ذلك في عدة أجيال من نوعها وبعد ذلك يحتاج الجيل الاخير للتلقيح ، ومن العلماء المتأخرين من يقول الآن بجواز حصول ذلك في الانسان أيضا وغيره من الحيوانات الراقية قياسا على ما شهدوه من أن ما يحصل في بعض أنواع الحيوانات على سبيل القاعدة قد يحصل مثله على سبيل الشذوذ في غيرها ومن الجنون أن يتخذ مثل هذا الشذوذ في المخلوقات دليلا على ألوهيتها كمن يتخذ المرأة التي لها أكثر من ثديين إلهة ويعبدها لانه لم يَرَ امرأة اخرى مثلها او لم يسمع بذلك وكمن يعبد امرأة أحصنت فرجها عن الزنا ولكنها حملت وهي عذراء من زوج لها عنين لم يمسها بالجماع المعتاد بين صحيحين بل بالاحتكاك الخارجي فقط مع الانزال فظن العابد لها ان ذلك مستحيل مع ان الامر ليس كذلك بل هو واقع مشاهد

فليس المسيح عليه السلام وحده آية دون سائر المخلوقات بل هو فقط من أعجب العجائب وأكبر الآيات (وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون) وكما انه سمي (بكلمة الله) كذلك سائر المخلوقات سميت بكلمات الله قال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله - إلى قوله - ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم . ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) الآيات وقال أيضا للدلالة على عظم نعيم الجنة وسعته وبقائه (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) فالمراد بكلمات الله في هذه الآيات مخلوقاته تعالى كما يدل على ذلك السياق فيها . وسمي (المخلوق) بالكلمة من باب تسمية الشيء بسببه على سبيل المجاز المرسل كاطلاق اليد على النعمة

في قول القائل عظمت يد فلان عندي) أي نعمته التي سببها اليد فكذلك مخلوقات الله لما كونت بكلمات الله سميت (بالكلمات) فآدم والمسيح وسائر البشر هم كلمات الله وإنما اشتهر المسيح بن المسيحين بالكلمة دون آدم مثلا لايضاح كيفية خلقه لينفي عنه اعتقاد النصارى بألوهيته واعتقاد اليهود بأنه ابن زنا(١) ولانه أحدث من آدم عهدا بالنسبة إلينا ونعلم من اخباره وأحواله ما لا نعلمه عن آدم فهو آية لنا قريبة وله من المعجزات العظيمة ما يجعله أولى بهذا الاسم من سواه فانه فضلا عن كونه خلق بدون أب تكلم في المهد وخلق من الطين طيرا وأحيا الموتى وابرأ الأكمه والأبرص باذن الله فلاجتماع هذه الاشياء كلها فيه كانت تسميته بالكلمة اظهر من تسمية غيره وإن كان الناس كلهم كلمات الله كما تقدم . انظر مثلا خالداً بن الوليد فانه سمي (سيف الله) لشجاعته العظيمة ولاهلاكه اعداء الله فهل اشتهاره بهذا الاسم يدل على ان غيره غير جدير به ؟ وكما ان الله اباد بخالد كثيرا من اعدائه سمي (سيفه) كذلك المسيح خلقه الله خلقا عجيبا واجرى على يديه معجزات عظيمة وآيات كبيرة وبه ظهرت قدرة الله تعالى للناس فسماه لذلك كلمته مبالغة واكراما له كأنه هو نفس الكلمة التي فعل الله بها هذه الاشياء على يديه كما أن خالداً شبه بالسيف الذي يقطع الله به الاشرار وفي الحقيقة ليس لله كلمة ملفوظة عند إرادة الخلق ولا له سيف محسوس وإنما هي مجازات معهودة في اللغات كلها ولمثل ذلك سمي المسيح أيضا روح الله لانه يحيي النفوس والجماد والموتى

ومن هذه المجازات نشأ غلط النصارى لظنهم أن (الكلمة) شيء موجود ممتاز عن الله امتياز الأشخاص بعضها عن بعض وأن هذه الكلمة هي التي أوجدت جميع المخلوقات فزعموا ان المسيح هو الخالق لكل شيء غلوا منهم وافراطا مع ان الكلمة ليست شيئا ممتازا بل لا وجود لها في الحقيقة إلا إذا أريد بها القدرة وهي إحدى صفات الله تعالى وليس من المعقول أن الصفات تكون أشخاصا

(١) راجع كتابنا (العلامة الدهابية على صحة الديانة الاسلامية) المطبوع لاول مرة سنة ١٣١٦ هجرية

(أو أقانيم) ممتازة بعضها عن بعض قائمة بذاتها بل هي صفات لا تقوم إلا بالذات العلية والفرق بينها وبين الذات الالهية في الكنه والماهية كالفرق بين الجوهر والعرض والصفة والموصوف . فكيف إذا يكون الآب (وهو الله) مثل الكلمة والروح ؟ ولماذا لم تجعل الصفات الأخرى لله تعالى (وهي اكثر من ثلاثة) أقانيم أيضا كالعلم والارادة والسمع والبصر وغيرها ؟

وإذا كان الابن خالقا لكل شيء فما وظيفة الأب إذاً ؟ وأي شيء خلقه روح القدس إذا كانت هي المرادة بقول داود ٣٣ : ٦ (بكلمة الرب صنعت السموات وبِنَسَمَةِ فيه كل جنودها) كما يزعمون ؟ فما هي الجنود التي صنعتها الروح إذا صح أن كل شيء بالابن كان و بغيره لم يكن شيء مما كان كما قال يوحنا (١ : ٣) ؟

ومن المجاز أيضا إطلاق كلمة (وحي) على (المُوحى) كما في أشعياء (١٣ : ١) وإطلاق كلمة (الخلق) على (المخلوق) والارادة على الشيء المراد كما في قول المسيح لو ٢٢ : ٤٢ (ان شئت أن تجيز عني هذه الكأس . ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك) أي ليكن الشيء الذي تريده أنت لا ما أريده انا و بمثل تعبيرنا نقل هذا القول مرقس في انجيله (١٤ : ٣٦)

ومن المبالغة المعتادة تسمية الشيء الجميل بالجمال والحَسَن بالحُسْن ونحو ذلك كثير . ومن الناس من سمي (رحمة الله) و (نعمته) و (حزقيل) أي بصرُ الله و (عزري) أي عون الله . وقد سمي احد انبياء بني اسرائيل (بحزقيال) ومعناه (قوة الله) وهو ابلغ في الدلالة على القدرة على الخلق من تسمية المسيح (بكلمة الله) فان الكلمة تطلق على معان أخرى منها - كما قلنا - أحكام الله وشريعته ولذلك سميت الوصايا العشر بالكلمات العشر (تث ١٠ : ٤) . فهل يصح أن يقال من أجل ذلك إن (قوة الله) أو قدرته تجسمت حقيقة ونزلت إلى الارض وظهرت للناس كما قال يوحنا في حق المسيح لانه سمي بكلمة الله (يو ١ : ١٤) ؟ ولماذا اختص حزقيال بهذا الاسم دون سائر الانبياء ؟ وأي فرق بينه وبين تسمية المسيح بالكلمة ؟ الحق ان النصارى أخذت مذهبها

في (الكلمة) من مذهب الرواقيين فيها فان مذهبهما واحد. والرواقيون هم أتباع الفيلسوف (زينون) اليوناني الذي عاش من سنة ٣٤٠ الى ٢٦٠ قبل الميلاد وكان يعلم فلسفته في رواق شهير بأثينا وكان يعتقد أن الكلمة (Logos) هي الشيء العامل في الكون والخالق له والكائن فيه ومن ذلك نشأ مذهب النصارى في القرون الأولى فقالوا إن الكلمة صارت جسدا وحلت بين الناس وكانت موجودة في الازل وهي التي خلقت كل شيء !! وبذلك تقربوا من الرومانيين حتى دخلوا في دينهم أفواجاً أفواجاً لان الفلسفة اليونانية كانت هي السائدة على عقولهم ومعتقداتهم ولذلك ترى ان المسيحية أدخلت فيها أشياء كثيرة من أفكار اليونانيين والرومانيين حتى أن تعظيم يوم (الاحد) بدل (السبت) مأخوذ عنهم كما ستعلم

ويجوز ان المسيح ما كان يسمى بالكلمة في عصره وإنما سمي بذلك فيما بعد في انجيل يوحنا اخذا عن الفلسفة اليونانية ولما جاء القرآن اخذ هذا الاسم عن النصارى وأراهم كيف يمكن تحويل المراد منه عندهم الى معنى صحيح غير مايفهمونه يناسب عقيدة القرآن في المسيح عليه السلام من أنه عبدالله ورسوله المخلوق بكلمة الله وقدرته فيكون ذلك من ضمن اسباب تسميته على المراد بالكلمة في القرآن

هذا واعلم ان امتياز المسيح أو غيره ببعض الاشياء أو اختصاصه بها لا يدل على أنه أفضل من جميع الأنبياء كما أن امتياز ابراهيم بكونه خليل الله وموسى بكونه كليم الله وبكثرة الآيات والمعجزات وعظمها ووضوحها لا يدل على أنه أفضل من المسيح مثلا بل ان اشتهار الخليل بهذا الاسم لا يدل على أن ليس هناك لله خليلا مثل ابراهيم . أرأيت اذا فاق أحد التلاميذ في علم مّا من العلوم جميع أقرانه فهل يستلزم ذلك أنه اعلمهم في كل شيء وأولهم وأرقاهم ؟ كلا !!

﴿ المسألة الثانية ﴾

« في نقض النصارى ناموس الله »

من العجيب أن النصارى تركوا قول المسيح بعدم نقضه الناموس (متى ٥:١٧) واتبعوا أهواءهم وأقوال بولس وأضرابه حتى أبطلوا لأجلها جميع شرائع التوراة

ولم يعملوا بواحدة منها كما أمروا في أسفار موسى فتراهم مثلا تركوا تعظيم اليوم السابع الذي باركه الله وقدسه (تك ٢: ٣) وأمرهم بحفظه (تث ٥: ١٤ وخر ٣١ : ١٥ و٣٥: ٢ و٣) وجعله فرضا أبديا عليهم (خر ٣١ : ١٥ ـ ١٧) وأوجب عليهم أن لا يعملوا أي عمل فيه وأن لا يشعلوا نارا في مساكنهم وأن يقتلوا كل من خالف هذه الاوامر (خر ٣٥ : ٢ و٣) فاستبدلوا اليوم الاول (الاحد) باليوم السابع ومع ذلك لم يحفظوه أيضا كما كان يحفظ السبت موسى وعيسى والانبياء

ففي أي موضع من الاناجيل أبدل المسيح (او تلاميذه) يوم السبت بالاحد وأجاز لهم العمل فيه ومخالفة أوامر التوراة؟ ولماذا لم يقم عليه السلام من الموت في اليوم السابع (السبت) حتى يتفق سبت النصارى مع سبت اليهود الذي قدسه الرب قديما ؟ أو لماذا لم يقدس الله يوم الاحد منذ البدء ويجعله هو يوم الراحة للأمم ليكون ذلك إشارة إلى قيامة المسيح المزعومة في ذلك اليوم الذي لم يعرف تعظيمه في الكتب الالهية القديمة بل كان يعظمه بعض الوثنيين الذين خصصوه لعبادة الشمس ـ أعظم آلهتهم ـ ولذلك سموه ويسمى عند بعض الامم للآن (يوم الشمس) (Sunday) فالنصارى تركوا أوامر الله التي في التوراة واتبعوا الوثنيين وعظموا يومهم !!

وكذلك تركوا الختان وهو فرض عليهم في الشريعة الموسوية (لاويين ١٢:٣) وجعله الله علامة عهد أبدي بينه وبينهم واوجب قتل كل من نكث هذا العهد ولم يختتن في لحم غرلته (تك ١٧ : ٩ ـ ١٤) وقد ختن عيسى عليه السلام نفسه (لو ٢: ٢١) ولكن بولس ـ وهو لم ير المسيح في حياته ـ قال لهم (غلا ٥ : ٢) (ان اختتنتم لا ينفعكم المسيح شيئا) وقال (كو ٢ : ١٦) « فلا يحكم عليكم أحد في أكل أو شرب أو من جهة عيد أو هلال أو سبت » فهم لذلك تركوا جميع أحكام الناموس ولم يبالوا بعلمهم أن المسيح لم يأت لينقضها ـ كما قال ـ ولكنهم رجحوا أقوال بولس هذه على أقوال الله ورسله وتمسكوا بتأويلات ضعيفة ركيكة مضحكة ليعتذروا بها عن إبطال تعظيم اليوم السابع والختان في لحم الغرلة وغيرهما من أحكام الله مع أن حكمهما كان عليهم فرضا أبديا كما بينا . فلا أدري كيف اذاً أبطلوه واذا كانوا هم أنفسهم لا يعملون بأحكام هذه الكتب فما فائدة ايمانهم بها ولماذا يريدون أن يعمل المسلمون

بهذه الشرائع التي هجروها وأبطلوها ؟! وما الداعي الى المناقشة بيننا وبينهم في هذه الكتب والحال أنهم قد نقضوها ولم يعبأوا بها ؟

ومن أغرب أمورهم أن كل كلام لم يوافق أهواءهم لجأوا الى تأويله وباب التأويل عندهم واسع جدا يدخل فيه كل مكابرة وتحريف للاصل . ولاأدري أي كلام كان يمكن لموسى أو غيره أن يقوله لهم حتى يوقف سير تأويلاتهم هذه الفاضحة المخزية وحتى يعترفوا بأنهم مكابرون معاندون لله ولشرائعه ؟

فانظر مثلا الى تأويلهم في مسألة حفظ اليوم السابع (السبت) ومسألة الختان الجسداني ثم العجب العجاب الذي تضحك منه الثكلى فما أعجب عقولهم وما أغرب أفهامهم . والله لولا أننا نراهم بأعيننا ماصدقنا بوجود أمثالهم بين البشر

وقد غر طائفة المبشرين ماوصلت اليه أوربة من العلم والمدنية مع أنها ماوصلت الى ذلك بمثل هذه الافكار القبيحة ولا بعقائدهم الدينية المصادمة للبداهة العقلية، بل وصلت الى ذلك باتباع أحكام العقل والحس والوجود والدرس والبحث وبعد أن نبذت الخزعبلات والجمود وهذا الدين وراءها ظهريا . والا فقل لي بأبيك في أي شيء يتفق الدين الذي يأمر بالابتعاد عن الدنيا وزخرفها مع تلك المدنية الاوربية المادية ؟ وأي شيء تعمله دول اوربة اليوم وفق تعاليم الدين المسيحي؟ الحق إنه لايوجد بينهم وبين المسيحية علاقة تذكر الا بالاسم فقط كما لايخفى على أهل البحث والنظر . ولا تنس أن أكثر أهل العلم في أوربة مادبون ملحدون فكان الواجب على جماعة المبشرين أن يدعوهم الى دينهم ويحثوا أممهم على العمل به قبل أن يأتوا الى المسلمين . وبدذلك يعمل هؤلاء المبشرون انفسهم بناموس موسى ثم يدعون المسلمين للاخذ بهذه الكتب المهجورة من جميع أصناف الناس حتى أتباعها

فان قيل : إذا كان بعض الشرائع حكما أبديا في شريعة موسى فكيف اذا نسخ في شريعتنا الاسلامية ؟

فالجواب : (١) نحن لانسلم بجميع ألفاظ هذه الكتب اذ يجوز عندنا أن بعضها زيد أو تحرف سهوا أو قصدا ـ كما بينا ـ ولايخفى أن اليهود كانوا يظنون أنهم وحدهم شعب الله الخاص وأن دينهم وملكهم باق الى الابد فلا عجب اذا

دخل في كتبهم شيء من هذه الافكار المتعلقة بدوام ملكهم ودينهم ومدينتهم (أورشليم) الى الابد كما قيل عنها في كتاب ارمياء (٣١ : ٣٨ - ٤٠) (لاتقلع ولا تهدم الى الابد) . وليلاحظ القارئ أن لفظ الابد بالنسبة للاحكام يندر وجوده في سفر التثنية وهو السفر الذي نرجح سلامته من الفساد الكبير كما سبق

(٢) لعل دوام دينهم كان مشروطا باستقامتهم وحفظهم له ولعهد الله فاذا نقضوا عهدالله نقض الله أيضا عهدهم وأبطل دينهم كما فعل بملكهم الذي علق دوامه على صلاحهم وتقواهم - كما بيناه سابقا - ولذلك قال في ارميا ٣٣ : ٢٠ و ٢١ (ان نقضتم عهدي ...... فان عهدي أيضا مع داود عبدي ينقض فلا يكون له ابن مالكا على كرسيه ومع اللاويين الكهنة خادمي) أي يبطل ملكهم وشريعتهم . (راجع ايضا ٢ أي ٧ : ١٩ - ٢٢ ولا ٢٦ وتث ٢٨ وغير ذلك)

أما إذا استقاموا وكان الله حكمة وعدهم ببقاء بعض أحكام شريعتهم إلى الأبد فمن الجائز أن الله تعالى ما كان لينسخ هذه الاحكام ويبقيها في الشريعة الاسلامية كما هي أو مع بعض تحوير فيها لا يغير جوهرها ويزيد عليها ما شاء وينقص منها ما لم يكن حكمه أبديا

لكن الله تعالى علم أنهم لن يستقيموا ولا بد أن ينقضوا عهده فقضى في علمه الأزلي أن يبعث رسولا من اخوتهم بني اسماعيل بشريعة غير شريعتهم وأخبرهم بذلك وأوجب عليهم اتباعه حينما يبعث (تث ١٨ : ١٥ - ٢١) وقد ظهر تمردهم وعصيانهم في زمن موسى نفسه حتى سماهم (شعبا صلب الرقبة) لشدة عنادهم (تث ٩ : ٦) وانذرهم بالابادة إذا عبدوا غير الله وعصوا أوامره (تث ٨ : ١٩ و ٢٠) وقد كان ذلك كله فعصوا الله فأبادهم ونسخ دينهم بدين الاسلام وأعطى أرضهم التي كانوا وعدوا بها إلى الابد (تث ٤ : ٤٠) للمسلمين الذين قال فيهم المسيح لليهود (متى ٢١ : ٤٣) (إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره) ولا يصح أن يراد بذلك أمة الرومان فان الارض المقدسة كانت إذ ذاك خاضعة لهم ولم تكسبهم المسيحية شيئا جديدا في تلك الارض التي بقيت في أيديهم موقتا حتى أخذها الاسلام منهم ولا تزال تابعة له الى اليوم

فكأن الرومانيين أخذوها من اليهود ونزعوها منهم لا لأنفسهم بل ليسلموها للمسلمين (العرب) أصحاب الحق فيها بعد اليهود فان الله تعالى وعد إبراهيم بأن تكون هذه الارض له ولنسله ملكا أبديا (تك ١٧ : ٨) ووهبها أولا لاسحاق (تك ١٧ : ٢١ وخر ٦ : ٤ ومز ١٠٥ : ٩ - ١١) ولما نزعها من يد نسله - لعدم وفائهم بعهد الله - أعطاها لبني اسماعيل (العرب) الذين جعلهم الله أمة كبيرة (تك ١٧ : ٢٠) وصارت يدهم على الكل (تك ١٦ : ١٢) وبذلك أبقى أرض الموعد في نسل إبراهيم إلى الأبد كما وعد تعالى

أما الرومانيون فهم ليسوا من نسله وليسوا أهلا بل كانوا كالمحتلين لها موقتا إلى زمن العرب أربابها بوعد الله فامتلأت بهم الان وستبقى كذلك إلى الابد كما وعد الرحمن (أنظر أيضا دا ٢ : ٤٤ و٧ : ١٨ و٢٧) وهم قديسو العلي كما سماهم دانيال

(٣) لعل المراد بالابد الابد النسبي كقولك لشخص (افعل ما أمرتك به دائما أبدا) والمراد أنه يفعله ما دام حيا فاذا مات فلا معنى لامتثال هذا الأمر فكذلك قول الله لهم (افعلوا كذا وكذا إلى الأبد) معناه أن يستمروا على فعله ما داموا أمة حية قوية ذات وجود ممتاز فاذا ضعفت أمتهم وتبددت وماتت فلا يمكنهم أن يمتثلوا هذه الأوامر بعد أن يتلاشى وجودهم المستقل

فاتباع الشريعة الموسوية كان واجبا على اليهود إلى أن تلاشى استقلالهم ومحيت مدينتهم وهيكلهم بعد المسيح وتبددوا في الارض واندمجوا في الامم الاخرى ولم يبق لهم وجود ممتاز حتى صاروا كالشخص الذي مات وتفرقت أجزاؤه ولذلك قال المسيح قبل أن يحصل ذلك إنه ما جاء لينقض شريعتهم بل ليكملها وأنه لا يزول حرف واحد منها حتى يكون أو يكمل الكل (متى ٥ : ١٧ و١٨) أما إذا أكملت هذه الشريعة وتبددت الامة اليهودية وزالت دولتهم ولم يبق من مدينتهم حجر على حجر (مت ٢٤ : ٢) فحينئذ يكون تكليفهم بهذه الشريعة كتكليف الميت بأي عمل بعد موته

فالاسلام لم يأت الا بعد أن أكمل الناموس وبعد أن ماتت الأمة اليهودية موتا تاما، حتى لم تتم شريعة القرآن الا بعد أن محي كل أثر من القوة كان لليهود

في بلاد العرب التي تحصن فيها بعضهم بعد تشتتهم فمجيء محمد (ص) بالاسلام كان اذا دليلا على فناء الأمة اليهودية وامحاء شريعتها وناموسها ولذلك قال يعقوب لبنيه انباء عما سيحدث في آخر الزمان (تك ٢٩ : ١ و ١٠) (لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون (١) وله يكون خضوع شعوب) فاذا جاء (شيلون) وهو الاسلام (أو السلام كما قالوا) زال ملكهم وشرعهم اما المسيح فما جاء ليزيل شريعتهم ولا علماءها

ومما يدلك على ان (الابد) في التشريع هو الابد النسبي قول الناس (فلان حكم عليه بالسجن المؤبد) ويريدون السجن مدة الحياة. على أن الابد المطلق لا يمكن أن يكون مرادا في الشريعة الموسوية بأي حال من الاحوال لأنه من المعلوم لجميع الانبياء أن الوجود في هذه الارض ليس مستمرا إلى الابد بل سينقطع بقيام الساعة فلا يمكن أن يكلفوا البشر شيء إلى الابد المطلق لان يوم القيامة سيزيل كل ذلك . وعليه فالأبد هو قطعا الابد النسبي (٢) ولا فرق بين حمله على يوم القيامة (الساعة العامة) أو على موت الأمة وفنائها وامحاء كل مشخصاتها ومميزاتها (في الساعة الخاصة) ومن مات فقد قامت قيامته كما ورد في الأثر

هذا هو جوابنا على هذا الاشكال . أما النصارى فلا يمكن أن يجيبوا عن هذه الاحكام المؤبدة في الشريعة الموسوية بمثل هذا الجواب لانهم (أولا) لا يسلمون تحريف هذه الكتب ولا دخول بعض الافكار الشائعة بين اليهود فيها كما دخل في العهد الجديد بعض خرافات ذلك العصر المنتشرة بين الناس مثل مسألة

---

(١) راجع بحث لفظ (شيلون) في فصل البشائر الآتي

(٢) مما يدل على ان المؤبد قد يكون مؤقتا قوله تعالى في القرآن الشريف (وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) وعليه فجميع الاحكام المؤبدة في الشريعة الموسوية هي مؤقتة بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم كأن الله قال لهم (افعلوا كذا وكذا أبدا حتى يأتيكم رسولي الذي اخبرتكم به فأطيعوه) أعني أن المراد بالابد الدهر الطويل أو الابد النسبي كما في المتن

دخول الشياطين في الانسان (١) وخروجهم منه الى غيره والى الحيوانات الاخرى وتكلمهم فيه وتسببهم في بعض امراضه الجسدية والعقلية (وثانيا) إنهم لايقولون بجواز نسخ الشرائع الالهية عموما (وثالثا) ان المسيح لم يأت لينقض الناموس خصوصا بل ليكمله فيجب عليهم اذاً اتباع كافة أحكام الشريعة الموسوية وعدم تبديل حرف واحد من حروفها وأن يتركوا آراء بولس وفلسفته العجيبة التي تركوا لاجلها احكام الله .

أما المسلمون فانهم يقولون بتحريف هذه الكتب وعدم التعويل على كل لفظ من ألفاظها كما بيناه وبنسخ بعض أحكامها . كما قال تعالى (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عندالله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) وقال في حق محمد (ص) (ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم) وقال (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) (انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه)وقال (قل لاأجد فيما أوحي اليّ محرما على طاعم يطعمه ــ ...... الى قوله ــ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما (٢) ــ الى قوله ــ ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون)

---

(١) حاشية : قول القرآن الشريف (لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) لا يقتضي وجود ذلك بالفعل في الخارج فان من المشبه به ما لا وجود له الا في الذهن والخيال كقوله تعالى (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) وكقول الشاعر : ــ

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كانياب أغوال

فكذلك قول القرآن هذا فان المشبه به فيه هو من متخيلات العرب وسائر الامم ويراد به التشنيع والتقبيح ومثله يوجد في اعظم الكتب العلمية في أية لغة كانت ولا يستفاد منه أن الشيطان له هذا التأثير في الانسان ولذلك قال تعالى (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان) ونحوه كثير في القرآن ومن العجيب ان القرآن يذكر معجزات المسيح مرارا وتفصيلا ومع ذلك لم يذكر منها (اخراج الشياطين) وجميع الاناجيل مصممة بها حتى الابوكريفية وأذهان الامم ممتلئة بها فكيف خلا القرآن من هذه الخرافات الشائعة بين جميع الناس حتى أهل الكتاب لولا أنه وحي الله ؟

(٢) حاشية . يفهم من هذه الاية الشريفة حل بعض أجزاء من الشحم لليهود . ولكن الذي يفهم من سفر اللاويين (٣ : ١٦ و ١٧ و ٧ : ٢٣ ــ ٢٥) هو تحريم كل جزء من أجزاء الشحم فلا بد أن يكون هذا من تحريف الكهنة ليأخذوا كل الشحم من الناس بدعوى ايقاده على المذبح (كما في لا ٣ : ١١) ثم يأكلوا منه شيئا لانفسهم . أو يكون هذا الحكم نسخ فيما بعد زمن موسى أو غيره من أنبياء بني اسرائيل (أنظر نحميا ٨ : ١٠) كما حرموا السرقة في اسرائيل =

فالمسلمون انما تركوا شريعة الله الموسوية لأوامر صريحة في كتابهم الالهي

= مطلقا بعد موسى بسنين عديدة وكان مباحا لهم في زمنه (تث ١٠ : ١٢ — ١٨) أو أنه حصل خطأ في هذه الشريعة أثناء نقلهم لها في تلك العصور المظلمة الطويلة أو أثناء ارتدادهم عنها لعبادة الاصنام مرات عديدة في سنين كثيرة ولو أراد انبياؤهم اصلاح ذلك حينما يرجعون اليها لقاومهم الكهنة وغيرهم لمصلحتهم الشخصية ولسفكوا دماءهم فانهم كثيرا ما قتلوا الانبياء والمرسلين (أنظر متى ٢٣ : ٣٠ — ٣٧) كلما أرادوا اصلاح احوالهم وأمورهم

ولا يستبعدن القارىء وقوع مثل هذا الخطأ في هذه الكتب مع كثرة الانبياء فيهم فقد وقع فيها غيره سهواً أو قصداً مما بيناه ومما لم نبينه كمسألة اجترار الارنب الجبلي (لا ١١ : ٦) ومسألة برص الثياب وبرص البيوت (لا ١٣ و ١٤) ولعل هذه المسألة الاخيرة هي أيضاً من وضع الكهنة لمصلحة لهم فيها ولم يتمكن الانبياء من ازالتها كما لم يمكنهم منعهم عن عصيان الرحمن وعبادة الاوثان

والذي يدلك على أن بعض الشحم أحل لهم كما قال القرآن وأن النص على تحريم الكل اما أنه محرف أو منسوخ قول سفر التثنية (وهو أصح هذه الاسفار على مذهبنا) في نعم الله على بني اسرائيل بعد خروجهم من أرض مصر ما يأتي تث ٣٢ : ١٠ (وجده « أي اسرائيل والمراد بنيه » في أرض قفر وفي خلاء مستوحش خرب .... ١٢ هكذا الرب وحده اقتاده وليس معه إله أجنبي ١٣ أركبه على مرتفعات الأرض فأكل ثمار الصحراء وأرضعه عسلا من حجر وزيتاً من صوان الصخر ١٤ وزبدة بقر ولبن غنم مع شحم خراف وكباش .... وتيوس مع دسم لب الحنطة ودم العنب شربته خمراً) فاذا كان كل الشحم محرماً عليهم كما في سفر اللاويين فكيف اذاً يمن الله عليهم في سفر التثنية وهو آخر الاسفار الموسوية وأصحها باطعامهم وهم في البرية شحم الخراف والكباش والتيوس ؟ ألا يدل ذلك على صحة قول القرآن الشريف في هذه المسألة وخطأ كتبهم الاخرى فيها ؟ والا فكيف يمكنهم التوفيق بينها لازالة هذا التناقض ؟

والعبارة الاخيرة من سفر التثنية وكذا غيرها (تث ١٨ : ٤) تدل على حل الخمر لهم وان كان شربها حرم على الكهنة فقط عند دخولهم خيمة الاجتماع (لا ١٠ : ٨ — ١١) وكذلك المسيحية فيها ما يدل على حلها للناس (راجع يو ٢ : ١ — ١١ ولو ٢٢ : ١٤ — ٢٣) وبذلك تعلم أن الاسلام هو الدين الوحيد الذي حرم الخمر تحريماً تاماً وكذلك سائر الخبائث وأمثالها تحريماً ولولا النصارى لما انتشر شربها بين بعض المسلمين فانهم هم الذين علموها لهم مع ما علموه من موبقات مدنيتهم الاخرى كالانتحار والقمار والربا والرقص والخلاعة والفسق والفجور

أما لفظ السكر (بفتح السين) الوارد في القرآن في سورة النحل (١٦ : ٦٧) فالاصح أنه سكر الفاكهة (بضم السين) المسمى عند الافرنج (Laevulose) أو هو لغة في السكر (بضم السين) مطلقاً فان كلا اللفظين معرب من كلمة (شكر) الفارسية بابدال الشين سينا كما هو المعتاد في تعريب بعض اللغات الاخرى الشرقية كوشي العبرية وموسى العربية وغير ذلك كثير وقيل السكر الخل واذا كان السكر (بفتح السين) هنا هو المسكر فقوله تعالى بعده (ورزقاً حسناً) يدل على أن السكر غير

وأما النصارى فتركوها لغير أقوال المسيح نفسه القائل إنه لم يأت لينقضها بل ليكملها ،

ومما يزيدك يقينا بأن قول المسلمين بالتحريف في نفس مسألة الابد(١) هذه وفي غيرها ليس أمرا نظريا ظنيا بل هو حقيقة واقعية ـ ما جاء في رسالة بطرس الاولى قال فيها ١ : ٢٣ (مولودين ثانية لا من زرع يفنى بل مما لا يفنى بكلمة الله الحية الباقية « الى الابد ») فقوله « الى الابد » لا يوجد باعترافهم في أقدم النسخ وأصحها التي عثروا عليها . راجع الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٩٠٩ ميلادية في المطبعة الامريكانية في بيروت تجد أن هذه العبارة موضوعة فيها بين قوسين للدلالة على ما قلنا كما ذكروا في مقدمة هذه النسخة . وهذه إحدى التحريفات التي يزعمون أنها لا تتعلق بمسائل هامة فما أكبرهم من مكابرين ! !

وكيف بعد ذلك يمكننا أن نثق بأي شيء من نقلهم أو من كتبهم اذا كان التحريف فيها من العادات اللازمة لقدمائهم ؟ وكيف نأمن عليها من تلاعبهم وإفسادهم لها في غير هذه المواضع التي ظهرت لنا ؟ وهل لا يدل انتشار مثل هذه التحريفات في نسخها على صحة قولنا ان هذه الكتب في الازمنة القديمة كان يسهل على أصحابها تبديلها وتحريفها ؟

ومن العجيب أنك ترى النصارى بعد ذلك يدعون المسلمين لترك دينهم واتباع آرائهم وأهوائهم المخالفة لما جاء بموسى وعيسى وسائر انبياء بني اسرائيل !! فأي محاربة لله ولرسله ولكتبه أكبر من ذلك ؟ وهل بعد ذلك يعقل أنهم مؤمنون ؟ وقد بينا لك فيما سبق أن عقائدهم لم يأت بها النبيون وأنهم فيها لاحكام العقل هادمون وقد أريناك هنا أنهم لشريعة الله محاربون ولكتبه محرفون ! ! فبأي شيء من دين الله بعد ذلك يتمسكون ؟ واليه يدعون ؟ وبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟

(يتلى)

= ليس وزعاً حسناً لان الاصل في العطف أن يفيد المغايرة وهذه الآية المشار اليها هنا نزلت قبل التحريم البات فان الخمر حرمت تدريجياً لحكمة لا تخفى على المفكر ، والتحريم التدريجي شيء والنسخ شيء آخر فلا منافاة بين ذلك وبين مذهبنا في (الناسخ والمنسوخ)

(١) حاشية : جاء في سفر الخروج ٢١ : ٦ (ويثقب سيده أذنه بالمثقب . فيخدمه الى الابد) والمراد أن العبد يخدم سيده الى الممات وهو عجيب . ماقلناه آنفا في معنى الابد وهذا المعنى أيضا يرد في سفر صموئيل الاول ١ : ٢٢

الغارة على العالم الاسلامي (*)

أو

فتح العالم الاسلامي

٨

مؤتمر لسكنهو سنة ١٩١١

مقدمة المجلة الفرنسوية :

عقد مبشرو البلاد الاسلامية من البروتستان المؤتمر الثاني العام بمدينة هم في (لكنهو . الهند) يوم ٢٩ يناير سنة ١٩١١ أي بعد خمس سنوات من انعقاد مؤتمر القاهرة

ومعلوم أن المبشرين كانوا قد تفاوضوا في (مؤتمر أدنبرج) بمسألة مقاومة الاسلام ودرسوا وسائل مناهضته من كل الاوجه ولما عقدوا مؤتمر لسكنهو ارتاحوا لما رأوا من نجاحهم واشتركوا مع رئيسهم القسيس « زويمر » في معرفة موقف الاسلام وقوته وأسبابها . وأظهروا استعداداً لتطبيق أعمالهم على الحالة الحاضرة .

والظاهر من مطبوعات البروتستان ومنشوراتهم أنهم يتذرعون بالتؤدة في بذل المجهود لمعرفة موقفهم وميدان عملهم ودرس محاسنهما وهم لا يدعون شيأ من هذا القبيل . ومنشأ هذا التضامن في جماعة المبشرين البروتستان هو المواهب العملية التي امتاز بها الانجلوسكسوني والمزايا النظامية التي اختص بها الجرماني . ثم قالت هذه المجلة : طلبنا من القسيس زويمر أن يوافينا بملخص أعمال المؤتمر أثناء انعقاده فأجابنا الى طلبنا وأرسل لنا مجموعة تضمنت أبحاث المبشرين في ذلك المؤتمر .

(*) أنظر ما نشر في الجزء السابع ص ٥١١

برنامج المؤتمر وترتيبه :

انعقدت جلسات المؤتمر في باحة مدرسة « ايزبلاثور بون » البروتستانية الخاصة بالبنات وامتدت الى يوم ٢٩ يناير سنة ١٩١١ وهو ثاني مؤتمر خاص بالاسلام . والاول هو مؤتمر مصر الذي عرفه القراء

والذي يدخل الى باحة ذلك المؤتمر يرى جدرانه مستورة بالخرائط والاحصائيات التي يتبين منها مبلغ اتساع نطاق الاسلام وارتقائه وتقدمه في الايام الاخيرة . وعلى المنضدة التي امام الرئيس كرة أرضية مجسمة وعليها هلال وصليب. أما المقصود من هذا الرمز فظاهر ومفهوم .

وفي جانب الباحة غرفتان عرضت فيهما الغرائب المتعلقة بالاسلام مع مطبوعات جمعية التوراة التبشيرية والمظنون ان هذا المعرض سيبقى تحت مراقبة لجنة مواصلة عمال مؤتمر مصر .

واشترك في المؤتمر ١٦٨ مندوبا و ١١٣ مدعوا عن ٥٤ جمعية تبشيرية ونزل كل هؤلاء ضيوفا على مبشري لكنهو .

ومن المشتركين في المؤتمر القسيس زويمر - الذي تقول عنه المجلة الفرنسية انه الرجل الذي لا يهرم لانه درس الاسلام سنين طويلة بعد أن عاش سنين أطول بين الشعوب الاسلامية التي يحبها حبا جما : - ولم يكن القسيس زويمر رئيسا للمؤتمر فقط بل كان مديره الروحي أيضا .

ومن هؤلاء المشتركين الدكتور (ويتبرخت) الجرماني الانكليزي المشهور والدكتور (وهري) صاحب التعليق المعروف على القرآن . ومن المتنصرين الذين حضروا المؤتمر (متري افندي) الشاب المصري الذي يدير جريدة عربية والقندلت (احسان الله) والمبشر (أحمد شاه) الذي يحسن معرفة الاسلام وهو واضع (قاموس القرآن)

ومنع الصحافيون الانكليز والاميركان من حضور جلسات المؤتمر ولم ترسل لهم مذكراته الا بعد أن عنيت لجنة القرارات بتنقيحها .

وكانت مجلة العالم الاسلامي الانكليزية ـ التي يصدرها رئيس هذا المؤتمر قالت قبل ان تذكر ماجرى في لكنهو : « تمخض الاسلام في السنوات الخمس التي أعقبت مؤتمر مصر بحوادث خارقة لم يبق لها نظير فيها حدث الانقلاب الفارسي والانقلاب العثماني وما نتج عنهما ـ وفيها انتبهت مصر لحركتها الحاضرة ـ وعني المسلمون بمد السكة الحجازية ـ وتأسست في الهند مجالس ادارية وشورية وكان في قوانين انتخاباتها امتيازات للمسلمين ـ ودخلت الامور الاسلامية في قالب يلائم العصر ازداد به التمسك بمبادئ الاسلام ـ والمسلمون يحاولون احياء دينهم في الصين ـ وانتشر الاسلام في افريقية والهند الغربية والجزائر الجنوبية

كل هذه الحوادث تحتم على الكنيسة أن تعمل بحزم وجد وتنظر في أمر التبشير والمبشرين بكل عناية. وعلى ذلك فيشمل برنامج موتمر لكنهو الامور الآتية:

أولها ـ درس الحالة الحاضرة

ثانيها ـ النهاض المهم لتوسيع نطاق تعليم المبشرين والتعليم النسائي

ثالثها ـ اعداد القوات اللازمة ورفع شأنها .

هذا ما نشرته مجلة الرئيس عن مواد تصمنها برنامج المؤتمر . أما البرنامج نفسه فقد عرض على المؤتمرين بعد قراءة الخطب الافتتاحية وانتخاب اللجنة وتلاوة تقارير لجنة مواصلة أعمال مؤتمر مصر وهذه مواده :

الاولى ـ النظر في حركة الجامعة الاسلامية ومقاصدها وطرقها والتأليف بينها بين مسألة تنصير المسلمين

الثانية ـ النظر في الانقلابات السياسية في العالم الاسلامي وعلاقاتها بالاسلام ومركز المبشرين المسيحيين فيها .

الثالثة ـ موقف الحكومات ازاء ارساليات تبشير المسلمين

الرابعة ـ الاسلام ووسائل منع اتساع نطاقه بين الشعوب الوثنية .

الخامسة ـ تربية المبشرين على ممارسة تبشير المسلمين والمزايا النفسية اللازمة لذلك . والبحث في الدروس الاعدادية ودروس التبشير . وتأليف الكتب للمبشرين ولقراء المسلمين

السادسة ـ حركات الاصلاح الديني والاجتماعي .
السابعة ـ الارتقاء الاجتماعي والنفسي بين النساء المسلمات
الثامنة ـ الاعمال النسائية
التاسعة ـ القرارات العملية وتقارير اللجان المالية للمطبوعات والمنشورات

خطبة الرئيس الافتتاحية

افتتح القسيس زويمر مؤتمر لكنيو بخطبة أنيقة تكلم فيها على المسائل الاسلامية التي سيناقش فيها الاعضاء . فقسم خطبته الى أربعة أقسام
الاول ـ الاحصاآت الاسلامية
الثاني ـ حالة المسلمين السياسية وارتقاؤها
الثالث ـ ماطرأ على الاسلام بعدمؤتمر مصر من الانقلابات السياسية والفكرية
الرابع ـ الخطة التي اتبعتها كنائس أوربة وامريكة بعد مؤتمر مصر

الاحصاآت الاسلامية :

قال الرئيس زويمر : ليست لفظنا « العالم الاسلامي » شيئا اخترعه المبشرون للاشارة الى معضلة التبشير العام ، بل هي كلمة دقيقة تدل على موقف حقيقي
ثم أشار الى مجلة العالم الاسلامي الفرنسية وما نشرته عن الاسلام
ودخل بعد هذا في موضوعه فقال : ان عدد المسلمين يزيد قليلا على ٢٠٠ مليون ، وذلك بحسب متوسط الاحصائيات الكثيرة التي يتراوح تقدير المسلمين فيها بين ١٧٥ مليونا و ٢٢٩ مليونا .

فسلمو روسية وبخارى وخيوه ٢٠مليونا ومسلمو الصين بين ٥ ملايين و ١٠ملايين ويزيد عددمسلمي الهند على٦٩٠٧٧ر ٦٢ ولاحظ أن المسلمين الذين تحت سلطة انكلترة أكثر من الذين تحت سلطة أي دولة غيرهافي هذه العصور أو في العصور المتوسطة ، ومسلمو المستعمرات الانكليزية والهند يبلغ عددهم ٩٥ مليونا أي انهم يزيدون ٥ ملايين على النصارى الذين يحكمهم الانكليز . ومسلمو الهند الانكليزية آخذون في النمو وقد جاء في كتاب (الهندوجيانها وأفكارها) الذي ألفه الدكتور

(جونس) أن عدد المسلمين ازداد في السنوات العشر الاخيرة ٩١ في الالف مع أن زيادة عدد السكان بنسبة ١٩ للالف . وفي جاوه ٦٠٠ ر ٢٧٠ ر ٢٤ مسلم ومسلمو روسية ٢٠ مليونا وفي السلطنة العثمانية ٠٠٠ ر ٢٧٨ ر ١٤ مسلم وعدد المسلمين في كل واحد من أقطار مصر وفارس ومراكش والجزائر وبلاد العرب والافغان وغيرها يتراوح بين ٤ ملايين و ٩ ملايين ولا تخلو بلدة في آسية وأفريقية من سكان مسلمين ، وقد يكون المسلمون أقل من غيرهم في بعض هذه البلاد الا أن هذه الاقلية في تموستمر . وفي بلاد التبت المقفلة أبوابها في وجوه الاجانب ٢٠ ألف مسلم . والاسلام منتشر في الكونغو وبلاد الكاب . وهو في نماء سريع في بلاد الحبشة . ويدور على الألسنة منذ انعقد مؤتمر مصر أن كثيرا من القبائل النصرانية التي في شمال الحبشة دخلت في الاسلام وان كانت أسماء أفرادها لا تزال كما كانت من قبل .

والمبشرون المنتشرون على ضفتي النيل وشرقي أفريقية وبلاد النيجر والكونغو يرفعون أصواتهم بالشكوى من انتشار الاسلام بسرعة في هذه الأنحاء . وبالرغم من أن انتشاره في الهند الهولندية قد لقي موانع من مجهودات جمعيات التبشير الهولندية والالمانية فهو يتوطد ويثبت هنالك لان المسلمين أخذوا يستبدلون التقاليد الحشوية والخرافية ويتمسكون بعقائد ثابتة قوية ، ففي (صومترة) أكتسح الاسلام الارجاء الوثنية وفي جاوه ظهر بمظهر جديد على أثر تأسيس المدرسة الجامعة الاسلامية ، وكثرة طبع القرآن وازدياد عدد الدعاة والمرشدين المسلمين . وما زال الوطنيون يدخلون في شبكة الاسلام الى درجة يتعذر فيها على المبشرين المسيحيين أن يلقوا لأعمالهم رواجا .

وفي أميركة عدد كبير من المسلمين لا يستهان به لانه صار ٥٦ ألفاً وفي مستعمرة (الاغويان) الانكليزية فقط ٢٢ ألفا منهم وفي أميركة الوسطى ٢٠ ألفا .

والبلاد الاسلامية التي لم يدخلها المبشرون البروتستان هي التركستان الروسية وفيها خمسة ملايين من المسلمين وخيوه وفيها ٨٠٠ ألف وبخاري وفيها ٠٠٠ ر ٢٥٠ ر ١

والافغان وفيها ٥ ملايين و برقة (بني غازي) وفيها ٠٠٠ ر ١٠٠ وتونس وفيها مليون ووهران وفيها ٠٠٠ر٣٠٠ر١ وريف مراكش وفيه ٠٠٠ و ٢٩٠ ر ٢ وفي وادي مولويه وصحراء مراكش يتنافس الاسلام والنصرانية في الاستيلاء على الوثنية . ونجد والحجاز وحضرموت لا يوجد فيها مبشر واحد وجزائر مالزيه وفيها أكثر من مليون مسلم خالية من ارساليات التبشير

الانقلابات السياسية والجامعة الاسلامية

انتقل الرئيس زويمر في خطبته الافتتاحية الى قسمها الثاني الخاص بالانقلابات السياسية التي حدثت أخيرا في العالم الاسلامي فشكر الله على حدوث هذه الانقلابات في غرب آسية إذ كانت موجبة للاعجاب والاستغراب وبددت معالم التجسس وأقامت الحرية على انقاض الاستبداد وصار التجول في البلاد العثمانية والعربية والفارسية غير ممنوع وأصبح عبدالحميد سجينا في سلانيك . وارتبطت المدينة بدمشق بواسطة السكة الحديدية وتلألأ نور الكهربائية على الروضة النبوية . كل هذا يعد عصراً جديداً في تاريخ آسية الغربية وأفريقية الشمالية

وصار مسلمو روسية يحاولون تعزيز حقهم في الدوما ويؤلفون الجمعيات للتدرج في مراقي المدنية .

إلا أن النزعة الجديدة في مصر إسلامية محضة يراد بها جعل مصر للمصريين باعتبار أن المصريين مسلمون . ونتيجة ذلك اضطهاد المسيحيين في مصر (!) خصوصا اذا كانت إنكلترة لا تترك خططها في ترجيح كفة المسلمين.

وان بوادر الانقلابات قد أخذت تظهر في جزائر مالزية أيضا فأسس شبان (جاوه) جمعية الاتحاد العام (بوندي أوتومو) الذي يرمون به الى إحداث ارتقاء اجتماعي واتباع مبادئ الحرية والاستقلال الاداري . وقد فسروا القرآن بلغتهم .

وتوجد في (طوكيو ـ اليابان) جريدة بالهندستانية اسمها (النهضة الاسلامية) منتشرة في كل بلاد الصين . وجريدة انكليزية ينشرها مسلم مصري وآخر هندي . وفي ذلك دلالة على مبلغ حركة الجامعة الاسلامية .

واحتلال الجيش الفرنسي لمقاطعة (واداي) بأفريقية في العام الماضي أهم حادث سياسي في هذا العصر ، لان واداي كانت أهم مركز في أفريقية للاتجار بالرقيق وانتشار الاسلام ، وعلى ذلك فان هذا المركز أصبح تحت سلطة أوربية تحتفظ به مهما كلفها ذلك . وهذه الحادثة جعلتنا في مأمن من أن تكون واداي بعد الآن مركزا للحركات الحربية ضد الحكومات النصرانية وهي أيضا ستقلل نفوذ مشايخ الزوايا السنوسية بحيث لا يستطيعون الوقوف في طريق التقدم الاستعماري والتجاري في الاسلام .

ولم يبق الآن غير ١٢٨,٨ و ٣٧ مسلم تحت سلطة حكومات اسلامية . وقد انتقلت السلطة السياسية على أكثرية المسلمين من يد الخلافة الاسلامية الى يد انكلترة وفرنسة وروسية وهولندة . وعدد المسلمين الذين تحت سلطة كل واحدة من هذه الدول يفوق عدد المسلمين الموجودين في كل أرجاء السلطنة العثمانية ، وان عدد المسلمين الذين تحت سلطة الدول النصرانية سيزداد كثيرا عقيب انقلابات قريبة الحصول وبذلك تزداد مسؤولية الملوك النصارى في مهمة تنصير العالم الاسلامي (!)

الانقلابات الاجتماعية والفكرية :

قال الخطيب : ان الاسلام قد بدأ ينتبه لحقيقة موقفه . ويشعر بحاجته الى تلافي الخطر . وهو يتمخض الآن بثلاث نهضات إصلاحية : الاولى إصلاح الطرق الصوفية ، الثانية تقريب الافكار من الجامعة الاسلامية ، الثالثة إفراغ العقائد والتقاليد القديمة في قالب معقول .

ومصدر هذا الشعور بالحاجة الى الاصلاح واحد ، وهو التغير الذي حدث في الاسلام عندما اكتسحت أهله الافكار العصرية والحضارة الافرنجية ، ولا يمنع هذا أن يكون الشعور مؤديا الى عاطفة الاحتجاج والحذر أو الى التوفيق والتحكيم لان كلا العاطفتين تجتمعان عند جعل الاسلام في مستوى الافكار العصرية .

قال (اسماعيل بك غصبرنسكي) في جريدته (ترجمان) : ان العالم في تغير وارتقاء مستمر ولكن المسلمين لا يزالون متقهقرين أشواطا بعيدة .

وقال (الشيخ علي يوسف منشئ أهم جريدة اسلامية) في خطاب ألقا جمهور عظيم : ان المسيحيين قد سبقونا في كل شيء . فالمسلمون ليس لديهم بواخر في البحر ، وهم غير منتبهين لموقفهم ، ومجهوداتهم متشتتة ، وكل مايفعلونه أ... يمشون وراء مرشديهم ولكن بغير اهتمام ذاتي لادراك الامم التي سبقتهم . و... كلام هذين الرجلين ماسمعناه مرارا في الهند وغير الهند .

ثم قال القسيس زويمر : وان نهضة الشعوب الاسلامية وانتباهها لمعرفة مركزها يدعوانها الى التساؤل عن طريقة التوفيق بين المبادىء الدستورية والمبادىء الدينية وتاريخ الدستور الفارسي وحركة الارتجاع في البلاد العثمانية يؤيدان وجود تباين بين الافكار الديموقراطية ونصوص القرآن (! . . .)

ويمكننا أن نرتاب في صحة التصريح الصادر من شيخ الاسلام عن انطباق تأسيس مجلس المبعوثان العثماني عن النصوص القرآنية (!) ومما يؤيد ارتيابنا وقوف المبعوثين المسلمين المعروفين بالتقى في وجه كل اصلاح يعرض على مجلس المبعوثان والصحف المصرية تدافع عن الفظائع التي أمر بها سلطان مراكش والبدو يخربون السكة الحديدية الحجازية بدعوى أن (العربات) المخصصة فيها للصلاة تنافي الشعائر الاسلامية (؟ !)

وفي العالم الاسلامي الآن حركتان متناقضتان يحمل لواء الحركة الاولى رجال الصوفية والمشايخ في اليمن والصومال والبوادي وشعارهم الرجوع الى التعاليم المحمدية ، والحركة الثانية يتولى زعامتها أنصار الاصلاح ومبشرو الاسلام الجديد في مصر والهند وجاوه وفارس وهؤلاء يبنون أساسهم على وضع الطرق المعقولة

والصحف الاسلامية في (باكو) تتبع رجال الحزب الثاني الذي يقول ان الجمود والخرافات مما طرأ على الاسلام وهو غريب عنها كما أن فظائع دواوين التفتيش في القرون الوسطى ليست مما يأمر به المذهب الكاثوليكي

ثم أشار الى كتاب (حقيقة الاسلام) الذي ألفه محمد بك بدر المتخرج في جامعة أدنبرج فقال ان هذا الكتاب يدل على أن أشياع الاسلام الجديد (!) يريدون أن يرموا من السفينة مشحونها لينقذوها من الغرق .

وقال القسيس زويمر بعد ذلك : ان تأويل سورة الكهف وسورة النساء وتطبيقهما على مقتضى العقل أمر مستحيل (!) ولو اقتصرنا على مطالعة ما كتب عن الحجاب وتعدد الزوجات في الصحف الاسلامية يتضح لنا أن ما يظهر لنا من وحدة الافكار في الاسلام غير صحيح وهذه الوحدة مهددة بالنزاع والتناقض

ولا ريب أن في فارس والسلطنة العثمانية بل والبلاد العربية ألوفا من المسلمين مقتنعون بصحة النصرانية (١) ومخالفتها للاسلام (؟!)

وأشار الى قول الدكتور (و . شيد) من أن الاسلام يتحكك في كل قطر بالمدنية المصرية ومبادئها . وملاحظته لهذه الانقلابات يتوقف عليها بقاؤه » فتساءل عن نتيجة ذلك وعما اذا كان في الامكان مجاراة تيار الحضارة مع الاحتفاظ بمبادئ القرآن وتعاليمه وعما اذا كان التقدم الاجتماعي والعقلي المجرد من كل صبغة دينية كافيا لسد الحاجة الروحية في الملايين من المسلمين . أو ان العالم الاسلامي ـ رجاله ونساءه ـ ينبض من كبوته ليتسلق معالم المجد الذي أبقاه على الارض يسوع المسيح ابن الله (!) (٢)

خطة الكنائس بعد مؤتمر مصر :

وانتقل زويمر بعد هذا الى القسم الرابع من خطابه وهو الكلام على الخطة التي اتبعتها كنائس أوربة وأمريكة بعد مؤتمر مصر . فذكر أن مؤتمر مصر كان فاتحة عصر جديد لتنصير المسلمين لانه كشف الحجاب عن أمور كثيرة كانت مهملة ومنسية وحث الكتاب على وصف أعمال المبشرين في بلاد الاسلام واستعداد الكنائس واستعمرخها . فخاضت الجرائد والمجلات في مسألة الانقلاب العثماني والانقلاب الفارسي والنهضة المصرية وحركة الجامعة الاسلامية ومكانها من الحركة السياسية الحاضرة . وكل هذه الكتابات التي نشرتها الجرائد أبانت عما يجب أن نعمله في العالم الاسلامي وصنفت الكتب الكثيرة التي يراد بها تعريفنا بلاد الاسلام وحالات المسلمين مثل كتاب (المشرق الادنى والمشرق الاقصى)

---

(١) ما أجرأه على الكذب الصراح ؟ (٢) لم يكن المسيح مجد أرضي ولم يترك على الارض الا الحالة التي كان يشكو بلاءها ويتألم الى أن قبض ورفعه الله اليه صالح

الذي طبع منه ٤٥٠٠٠ نسخة ومثل كتاب (أخواتنا المسلمات) وكتاب (المدنية الاسلامي) الذي طبع منه ٥٠٠٠٠ نسخة وأكثر هذه الكتب نشر بلغات متعددة . وكتب المبشرون في هذه المدة مقدار عشرين كتابا بحثوا بها في المعضلة الاسلامية من كل أوجهها وكلها مبنية على بحث واستقصاء . ومن هذه الكتب كتاب (دين الاسلام) (والشعائر الدينية الاسلامية)و(الاسلام والنصرانية في الهند والشرق الاقصى) و(صليبيو القرن العشرين) و(مصر والحرب الصليبية) و(الاسلام في الصين)

وختم القسيس زويمر خطابه الافتتاحي بقوله : اذا نظرنا الى البلاد التي يحكمها هذا الدين الكبير الخاصم لنا والى البلاد التي يتهددها بحكمه اياها يظهر لنا أن كل واحدة من هذه البلاد هي رمز لعنصر من المعضلة الكبرى . فمراكش في الاسلام مثال للانحطاط . وفارس مثال للانحلال . وجزيرة العرب مثال للرقود . ومصر مثال لمجهودات الاصلاح . والصين مثال للاهمال . وجاوه مثال للتغير والانقلاب . والهند مركز التحكك بالاسلام . وأفريقية الوسطى مكان الخطر الاسلامي

والاسلام يحتاج قبل كل شيء الى المسيح ؟ . فهو الذي يرسل أشعة النور الى مراكش ويعيد الوحدة لفارس والحياة لجزيرة العرب والنهضة لمصر ويرد الى الصين ما أهمله الاسلام فيها . وهو الذي يبقي لاهالي مالزية بلادهم ويزيل الخطر العظيم من أفريقية ! ...

بعد مؤتمر مصر

رأى القائمون بمؤتمر لكنو أن تقرأ قبل الخوض فيموضوعات هذا المؤتمر تقارير اللجان التي تألفت بعد مؤتمر مصر . فقرأ الدكتور (ويتبرخت) الالماني تقريرا عن حالة المؤلفات التي صنفت لتبشير المسلمين . وأبان أن دائرة انتشار هذه المؤلفات قد اتسعت جدا باللغات الثلاث التي هي أهم اللغات الاسلامية ونعني بها العربية والفارسية والاوردية . وان قسما كبيرا من هذه المطبوعات خاص بالبلاد العثمانية ومنها ما تكرر طبعه مثل مؤلفات القسيس (بفندر) ومنها ما هو

مكتوب بأسلوب عصري صار يفيد التبشير منذ أخذ العالم الاسلامي يتحكك بالعلوم العصرية . وأهمية هـذه المؤلفات كبيرة في الهند لان الذين يكتبونها هم مسلمو الهند المتنصرون مثل (عماد الدين) الذي حصل من مدارس انكلترة على لقب (دكتور) في اللاهوت .

وبهذه اللغات الثلاث صار يمكن للمبشرين أن يتحككوا بثلثي المسلمين في العالم . أما الثلث الثالث فتؤلف من ١٠ ملايين صيني و ٢٠ مليونا من السلافيين و ٢٥ مليونا من السود . وهؤلاء لا توجد في لغاتهم كتب تبشير

ثم تليت تقارير أخرى في بيان ضرورة نشر مؤلفات في المناظرات الدينية التاريخيـة التي تكون مكتوبة بأسلوب عصري على ما تقتضيـه حالة المسلمين في مصر والهند وسائر أقطار الشرق . ثم أشاروا الى مساعدة صحف أوربة الكبرى للمبشرين لاهتمامها بالامور الاسلامية ومن أدلة هذا الاهتمام انشاء مجلة العالم الاسلامي الفرنسية (١) ومجلة الاسلام الالمانية ودائرة المعارف الاسلامية التي نشرت بثلاث لغات .

الجامعة الاسلامية :

وبعد أن تليت التقارير الـكثيرة في موضوعات مختلفة بدأ المؤتمرون بالمسائل التي عقدوا مؤتمرهم لاجلها . وافتتحوا ذلك بمسألة الجامعة الاسلامية فتقدم عنها ثلاثة تقارير : الاول من القسيس (نلسن) عن « حركة الجامعة الاسلامية في السلطنة العثمانيـة » . والثاني من القسيس (ورتز) السويسري عن « الجامعة الاسلاميـة في أفريقية » والثالث من القسيس (سيمون) عن « حركة الجامعة الاسلامية في مالزيه » .

قال القسيس نلسن عن الجامعة الاسلامية في السلطنة العثمانيـة : ان حركة هـذه الجامعة قد ضعفت جدا بعد خلع السلطان عبد الحميد ولـكن لا تزال في

(١) نشرت مجلة العالم الاسلامي مقدمة المنار لهذه المقالات (الغارة على العالم الاسلامي) وعقبتها بمقالة تتنصل فيه من الصبغة الدينية وأرسل الينا أحد أصدقائنا في باريس تلك القطعة وربما ترجمناها ونشرناها في المنار بعد تذييلها بما يقتضي

الاهالي روح تضامن ملازمة للاسلام وهي سائدة بين مسلمي سورية الى درجة تدعو للتبصر في علاقتها بزعماء الفكرة الاسلامية

ثم قال ان الالوف من مسلمي الارض يتجهون في كل سنة الى (مكة) و يشربون ماء (زمزم) الا أنه بالرغم من وجود كل أسباب الارتباط الخارجي و بالرغم من وجود الاتحاد الذي يجعل لفكرة الجامعة الاسلامية قوة حقيقية الى حد يستدعي اهتمام المبشرين النصارى والحكومات النصرانية – بالرغم من ذلك وهذا فانه يستحيل أن يكون من المسلمين عنصر حي حقيقي في استطاعته أن يجمع شمل السنيين والشيعة معا و يضم الاتراك والفرس والهنود الى العرب ليكافحوا و يدافعوا يداً واحدة على اتفاق وثقة متبادلة (١

وختم القسيس تلسن تقريره بقوله : « اسمحوا لي أن أقول لكم انه يظهر لي أن اجتماع المسلمين بجامعة اسلامية بكل المعنى الذي يدل عليه هذا اللفظ هو أمر وهمي لا ثمرة له غير توليد أحلام تقلق رجال السياسة الذين يغلب عليهم الخوف و يعتريهم المزاج العصبي »

وقال القسيس (وزر) عن الجامعة الاسلامية في افريقية : ان مدينة مكة والطرق الصوفية هما من اكبر العوامل على بث شعور الوحدة بين المسلمين والنفرة من كل شيء غير اسلامي ، وهذا ما يسمونه بالجامعة الاسلامية

واذا كان في افريقية عوامل أخرى توجب تقدم الاسلام فيها ففي الاحوال

---

(١) ليعتبر المارقون الذين يدعون الاتحاد ماذا يقوله المفكرون في شؤونهم بعد أن كان لهم اليد الطولى في ايجاد أسباب هذه التفرقة وليعتبر آخرون ممن يسمون انفسهم الوطنيين وليعلموا انهم بهذه التفرقة التي يدعون اليها انما يخدمون أوربة السياسية واوربة الدينية في آن واحد فان ما ترمي اليه أوربة هو أن يوجد في الامة أحزاب مثل الحزب الوطني المصري وجرائد مخربة مثل جرائده وجريدة « الجريدة » اذا انها من أهم معاول الهدم وعوامل التفرقة

وماذا تقول « الجمعية المصرية » والحزب الوطني المصري الآن وقد صرح الانكليز بتزعمهم على جبل الاسكندرية موقفاً دفعياً بحرياً أيمنعونها ذلك بقوة « الجمعية المصرية » وحيادهم أم بشعور الشيخ عبد العزيز جاويش واضرابه الذين مانوا بين كثير من فضلاء شبان الحزب الوطني الاسلامي روح الاتباع بمواهبهم واستعدادهم وفرقوا شمل الامة بالغش والخداع والتزوير ?

صالح مخلص رضا

المساعدة التي يتصف بها الاسلام ومركز بلاده الجغرافي وارتقاء الشعوب الاسلامية في السودان عن الشعوب الزنجية ثم ان الحالة الاقتصادية والتجارة الداخلية تأثيرا كبيراً على النيجر و بانوية ومقاطعة بحيرة تشاد لان التجارة في هذه الاصقاع كلها بيد القبائل الاسلامية . وأما التجار الاوربيون فيتمون ببلاد السواحل على الاكثر مع أن تجارة الذهب والملح والحديد والجلود والنارجيل (جوز الهند) ونقل هذه المحصولات يستخدم فيه ألوف من الوطنيين الذين يحتك بهم التجار ومن المحقق أن التاجر المسلم يبث في هؤلاء الوطنيين مع بضاعته التجارية دينه الاسلامي وحضارته الراقية . والحالة في السودان الغربي مثلها في السودان الشرقي

والاسلام في أفريقية صديق آخر يساعده على انتشاره ، ولعلكم تستغربون اذا قلت لكم ان هذا الصديق هو الاستعمار الاوربي ، فان الذي يفعله الاستعمار بعد أن يسلب من الامراء المسلمين سلطتهم السياسية هو أنه يقرر الامن ويمهد السبل للمسلمين(١) ، فبعد أن يكونوا منفورين من الوطنيين الوثنيين قبل الاستعمار الاوروبي بسبب الاتجار بالرقيق يصبحون بعد منه أصدقاء لهم فيتعامل الفريقان ويتفاهمان بكل حرية ومحبة .

ومن هذا يتبين أن الاستعمار يسلب من المستعمرات السلطة الاسلامية السياسية ولكنه يزيد الاسلام نفوذاً فيها .

ثم أسف صاحب التقرير أن المنافع الاسلامية تتم بارادة المستعمرين لانهم يفضلون استخدام المسلمين وتوظيفهم واستشهد على هذا بقول (اكسنفلد) مفتش ارساليات التبشير اذ صرح في المؤتمر الاستعماري الالماني بأن الاسلام يتبع خطوات الاوربيين حيثما ذهبوا ، فلا توجد نقطة عسكرية أوربية بدون جنود مسلمين ولا توجد مصلحة استعمارية أوربية بدون مستخدمين مسلمين . ولا تكاد توجد مزرعة خالية من حانوت لمسلم يبيع فيه ويشتري

وتكلم (ورتر) عن المدرسة التي أسستها انكلترة في (سيره ليونه) بقرب

(١) كأن الخطيب يود أن لا يكون للاسلام غير الاعداء مثله ويضره أن يكون للمسلمين حرية دينية

افريقية لتعليم أطفال القبائل الاسلامية والوثنية باللغة العربية ، وعدم تعليمهم الديانة النصرانية احتفاظا بمبدإها في الحياد الديني

ثم قال : ولو اتفق أن المسلمين غضبوا للصور الموجودة في كتب دروس الاشياء فلا تتأخر ادارة المستعمرات الانكليزية عن استفتاء علماء الاسلام في الاستانة ومصر والهند استرضاء لآباء التلاميذ وأقاربهم

ثم أشار الى تقدم الاسلام في افريقية فتساءل عما اذا كان هنالك عمل مرتب ويد عاملة على نشره أم أنه ينتشر بطبعه ؟ وأجاب بأن من الصعب حل هذه المسألة، لان القوات الفعلية التي ينتشر بها الاسلام تختلف عن قوات المبشرين بالنصرانية. ولكن يظهر أن النظام في نشر دين الاسلام أقل مما نتصوره لان المسلمين يجهل بعضهم أخبار البعض الآخر وأحواله واذا اتفق أنهم اشتركوا في أمرما فانما يكون ذلك بدون قصد ومن الخطأ أن يقال ان الجامع الازهر يرسل ألوف المبشرين الى افريقية الوثنية للدعوة الى الاسلام لان الازهر ليس معهد تبشير كما هي مدارس اللاهوت في أوربة ، ويقال مثل ذلك عن كل المدارس الاسلامية في شمال افريقية. ويستثنى من ذلك المدارس التي يديرها مشايخ الطرق في الصحاري وفي السودان

وعاد قبل أن يختم تقريره فقال : الا ان هنالك قرائن كثيرة تدل على وجود يد تعمل بقصد لنشر الاسلام . فانه يظهر في ربوع افريقية من وقت الى آخر مبشرون متنقلون يدعون المهدوية ويثيرون الفتن الشديدة ؟ ومن الذي يمكنه أن يبين لنا علاقة أصول الدين بهؤلاء المبشرين المتنقلين ! ولا ريب أن بين ناشري القرآن الكثيرين في افريقية أناسا هم أعضاء سريون ينتسبون الى طرق دينية

وتكلم بعده القسيس سيمون عن حركة الجامعة الاسلامية في مالزية فقال : يزعم بعضهم أن الاسلام في الهند تنقصه الحياة وأنه غير مرتب وأنه صبياني. ولكن يجب علينا أن لا ننسى ارتباط الاسلام في الهند بمكة . وهذا الارتباط يدعو سكان جزائر مالزية الى الاعتقاد بأنهم جزء من مجموع كبير . وأن سلطة النصارى عليهم شيء موقت . وسيأتي يوم يجيئهم فيه السلطان العثماني الذي هو أكبر أمير في أوربة ومرتبط بأواصر المودة مع أمبراطور ألمانية فينقذهم من يد النصارى

عقب حرب دينية . ونحن نرى البوجيين يعدون الآن كرات سحرية لتستعمل في محاربة هولندة يوم تنشب المعركة المنتظرة

ولكن عبثاً يبني هؤلاء آمالهم على الجامعة الاسلامية لان التربية النصرانية قد انبثت في دمائهم بفضل مدارس التبشير وباحتياطات استمدتها حكومة هولندة من أصول الدين النصراني ومن شأنها أن تزعزع آمال المسلمين الباطلة !

وقال بعد هذا في ختام تقريره : ان العامل الذي جمع هذه الشعوب وربطها برابطة الجامعة الاسلامية هو الحقد الذي يضمره سكان البلاد للفاتحين الاوربيين ولكن (المحبة) التي تبثها ارساليات التبشير النصرانية ستضعف هذه الرابطة وتوجد روابط جديدة تحت ظل الفتح الاجنبي !

عجالة من رحلة الهند

(لصاحب المنار)

٣

التعليم الديني في الهند

سألت عن مدارس الحكومة الانكليزية في الهند فقيل لي ليس فيها تعليم ديني ألبتة فلا يعلم فيها دين الحكومة ولا دين أحد من الاهالي (كما مر في النبذة الاولى ج ٦ ص ٤٥٥) . وبلغني أن المجوس يعلمون دينهم في مدارسهم ولم يتسن لي زيارة شيء منها على ما كان من رغبتي في ذلك لما ذكرت من ارتقاء هذه الطائفة في علومها وآدابها وحضارتها وكنت أرى أفراداً من رجالها ونسائها على شاطئ البحر بعد طلوع الشمس يصلون بما يقرءون من الكتب الدينية فما كانت عبادة الشمس والنار والبحر مانعة لهم من الترقي المدني فكيف يمنع منها دين التوحيد والفطرة ؟

وكذلك الوثنيون يعلمون دينهم في مدارسهم ، وإن أدري أذلك عام فيها وفي جميع فرقهم ام لا . وقد دخلت في آكره مدرسة كبيرة لطائفة السنك فعلمت أنهم يعلمون دينهم فيها . وهذه الطائفة صارت تتصدى للدعوة الى دينها ، ولم يكن هذا معهوداً عند الوثنيين من قبل ، وبلغني ان بعض الجهلة المنتسبين الى الاسلام قد

اتخلوا الوثنية اجابة لدعاتها (راجع الجزء السادس ص ٤٥٥) ، ولا عجب في ذلك بعد فشو نزعات الوثنية في المسلمين بدعاء اصحاب القبور واتخاذ قبورهم اوثانا ، واتخاذ توابيت لهم يطوف بها المسلمون الجغرافيون في اسواق مدن الهند وشوارعها كما يطوف الوثنيون بأصنامهم ، حتى صار يصعب على أكثر علماء الاسلام في هذا العصر أن يقنعوا علماء الاديان الأخرى بان دينهم يمتاز على اي دين من تلك الاديان ، وكان المميز الأعلى له في أهله التوحيد الخالص الذي لا يتحقق الا بامتثال قوله تعالى « فلا تدعو مع الله احدا » وامثال هذه الآية من الآيات الكثيرة . فاما التوحيد النسائي الذي يظن أكثر المشتغلين بالعلوم الاسلامية انه خاص بالمسلمين فما هو خاص بالمسلمين ، وفي بحثي مع ذلك البرهمي في مدينة (بنارس) المقدسة عندهم عبرة للمعتبرين ، فانه زعم ان جميع الملل اخذت التوحيد عنهم لانهم أقدم الأمم فيه ، وأن الأولياء الواصلين من المسلمين إنما يرتقون الى أصل دين البراهمة الذي هو وحدة الوجود كشمس الدين التبريزي ومحي الدين بن عربي (راجع ص ٤٥٦ من الجزء السادس) ، وهو يحفظ كثيرا من كلامهم ويطبقه على دينه ، ولا يرى عبادة بعض المخلوقات التي هي مرية في هيع الشر تنافي التوحيد والوحدة لانها لا تعبد إلا لأنها مظهر الفيض الالهي كبرهما، ويؤيد كلامه بقول عرفائهم وصوفية المسلمين.

وقد اسمعني كاهن السنك عند قبر ملكهم في لاهور طائفة من كتابهم المقدس كلها من أعلى الكلام في توحيد الله وتقديسه (راجع ج ٦ ص ٤٥٥) وعزو كل شيء في الكون اليه ، ولم يتعمد الكاهن اختيار ما قرأه بل فتح الكتاب امامي وقرأ من حيث فتح ، وانك على هذا الكلام المؤثر في التوحيد الخاص ترى تجاه قبة قبر الملك شبه منصة في بناء آخر عليها الصنم ذو الأيدي الثمان الذي يزوره السنك والمسلمون جميعا للاستشفاع به اذا أصابهم مرض الجدري (وما يؤمن اكثرهم بالله الاوهم مشركون)

**

اما المسلمون فكانت سوق العلوم الدينية ووسائلها من العلوم العربية نافقة في كثير من مدنهم ثم كسدت مدة طويلة ما كان يظهر فيها الا قليل من العلماء ثم جددها (ولي الله الدهلوي) صاحب كتاب حجة الله البالغة بنزوعه الى الاستقلال في الفهم ، واجتناب التقليد الاعمى في كل علم ، وكان له خلائف يسيرون على طريقته ثم انحرفوا عنها ، وزجوا أنفسهم في غمرة التقليد اتباعا لجمهور الطلبة وابتغاء رضاهم،

والعلم الصحيح والتقليد المحض ضدان لا يجتمعان ، وإنما يجتمع مع التقليد ومحالفه الجدل والمراء ، فزال بذلك العلم الاستقلالي أو كاد ، وضعف ما يسمى بالعلم التقليدي أيضا كما ضعف في سائر الاقطار والبلاد ،

على أني رأيت في مدرسة (ديوبند) التي تلقب بازهر الهند نهضة دينية علمية جديدة أرجو أن يكون لها نفع عظيم . وهـذه المدرسة لخلفاء ولي الله الدهلوي . وقـد اقترحت على علماء هـذه المدرسة الأخيار عدة اقتراحات في إصلاح التعليم وزيادة بعض العلوم العصرية في برنامجها (وهم يطلقون كلمة نصاب في معنى البرنامج او البروغرام في عرف مصر) وان يجعلوا دراسة الفلسفة اليونانية خاصة بطائفة من الطلبة وهم الذين يراد منهم الاخصاء في العلوم العقلية والفلسفة القديمة وتاريخ هذه العلوم ، وأن يخصصوا لكل نوع من العلوم طائفة من طلبة القسم العالي لاجل التبوغ فيها بعد الاكتفاء من غـيرها بالقدر اليسير ، ويعدوا بعضهم للدعوة الى الاسلام ، وبعضهم لارشاد عامة المسلمين ، على منهج مدرسة دار الدعوة والارشاد وان يعلموا المبتدئين اللغة العربية نفسها بالتكلم بها والترجمة قبل تعليمهم فنونها والفنون الشرعية المتوقفة عليها ، وحينئذ يسهل عليهم اقتحام العقبة الـكؤود في طريق التعليم عندهم وعند سائر الأعاجم وهي قراءة الـكتب العربية في جميع العلوم والفنون بالترجمة ، واني بعد مذاكرة بعض اعلامهم في حال التعليم عندهم خطبت فيهم خطبة طويلة في احتفال عام اجتمع فيه المدرسون والطلبة أودعتها هذه الاقتراحات وغيرها من النصائح التي خطرت على بالي في ذلك الموقف . فرأيتهم قـد وافقوني في جميع ما قلته ، بل كانوا قد سبقوا الى الفكر والعمل ببعضه من قبل وأسـوا جمعية دينية للمدرسة سموها جمعية الانصار

ما قرت عيني بشيء في الهند كما قرت برؤية مدرسة ديوبند ، ولا سررت بشيء هناك كسروري بما لاح لها من الغيرة والاخلاص في علماء هـذه المدرسة . وكان كثير من اخواني المسلمين في بلاد الهند المختلفة يذكرون لي هذه المدرسة ويصف رجال الدنيا منهم علماءها بالجمود والتعصب ، ويظهرون رغبتهم في إصلاح تميم نفعها وقد رأيتهم ولله الحمد فوق جميع ما سمعت عنهم من ثناء وانتقاد، وأرجو أن يصدق ظني فيهم بانهم من أبعد جميع من عرفت من علماء الاسلام الدينيين عن الجمود والغرور. وستكون الصلة بين مدرستهم ومدرسة دار الدعوة والارشاد وجامعتها دائمة إن شاء الله تعالى . وسأذكر في الرحلة خبر زيارتي لهذه المدرسة بالتفصيل ، ومنه ما دار

من الخطب هنالك ولا سيما خطبة أحد العلماء في تاريخ المدرسة وسير العلم فيها
هذا وان للعلم الديني بقية في معاهد ومدارس أخرى من المدن الآخرة بالمسلمين كدهلي ولكهنوء ولاهور . واني لأرجو الخير والاصلاح لمدرسة (فتح پور) في دهلي بهمة ناظرها سيف الرحمن الافغاني وغيرته وأخلاصه وقد سررت بزيارتي واجتماعي بجمهور العلماء والطلبة فيها ورحب بي بعضهم بخطبة عربية ارتجالية فاجبته بخطبة وجيزة أودعتها من النصائح في اصلاح التعليم وأهله ما فتح الله تعالى علي به هنالك . وحثثتهم على العناية بتعلم اللغة العربية بالقول والكتابة وترك قراءة الكتب بالترجمة فاظهروا الارتياح لذلك

أما مدرسة ندوة العلماء التي أسست لأجل اصلاح التعليم الديني ودراسة العلوم الاسلامية والعصرية كلها باللغة العربية والتي زرت الهند بدعوة جمعيتها وكنت رئيس احتفالها (اجتماعها العام في هذا العام) فاني لم أقف على طريقة التعليم فيها ولم أختبر أحداً من طلبتها لأن أيام زيارتي لها كانت أيام عطلة الدراسة واشتغال الناظر والمعلمين بالاحتفال الذي لم يسبق له نظير في كثرة اقبال الناس عليه من البلاد الاسلامية الكثيرة . وقد ارتجل أحد طلبتها خطبة وجيزة بالعربية لم يكن فيها أطلق لساناً ولا أوسع مجالا من الطالب الذي خطب بالعربية في مدرسة (فتح پوري) في دهلي . وسيكتب لي رئيس الندوة بياناً مفصلا عن مدرستها ينشر في الرحلة ان شاء الله تعالى

يعنى أهل الهند بالمنقولات من المنطق والفلسفة القديمة والاصول فعنايتهم بها وبالحديث أشد من عناية أهل مصر والشام ، بل أقول اني لا أعرف أن شعباً من شعوب المسلمين يعنى بالحديث كعنايتهم ، فهذا الازهر أشهر المدارس الدينية وأكبرها كاد يكون علم الحديث فيه نسيا منسياً ، ولكن حظ مسلمي الهند من أحاديث الاحكام الفقهية أنهم يتكلفون تطبيقها كلها على مذهبهم في الفروع والا حملوا ما يعييهم تطبيقه على النسخ عملا بقاعدة الكرخي وأمثاله من فقهاء المذاهب وهي : ان كلام أصحابهم (الحنفية) هو الاصل وكل من الكتاب والسنة يعرض عليه فان وافقه قبل وسمي حجة له ، وان خالفه أول أو ادعي نسخه ، الا أن يجدوا مطعناً في سند الحديث فانهم يكتفون بذلك أمره كما قال الكرخي . وقد قلت لبعض كبار العلماء في الهند ـ وقد أنست منه الصلاح والانصاف ـ أليس هذا عين التحريف المعنوي الذي نعاه الكتاب العزيز على أهل الكتاب ؟ فقال: اللهم نعم ، قلت : فلم لا تقرءون الحديث وتقررون معناه بحسب المتبادر من لفظه وتجعلونه فوق المذاهب أو يعتزل

عنها ؟ قال ان هذا لا يرضي الطلبة ولا يحضرون دروس الحديث الا اذا قرىء على هذه الطريقة . قلت اذا تؤثرون مرضاتهم على مرضاة الحق ؟ قال هذا هو الواقع !! ولكن بعض علماء ديوبند قال انه يسهل تطبيق جميع الاحاديث على مذهب الحنفية بغير تكليف وضرب لذلك بعض الامثلة . وهذا أغرب كلام سمعته من المشتغلين بالعلم فان المسائل التي اختلف فيها أبو حنيفة مع مالك والشافعي وأحمد وغيرهم من أئمة الفقه (رضي الله عنهم أجمعين) كثيرة جداً وهم كانوا أكثر رواية للحديث وكانوا فيه على نسبة تأخرهم فأحمد أكثر رواية من الشافعي والشافعي أكثر رواية من مالك وهذا أكثر رواية من أبي حنيفة . ثم أنهم كانوا أعرق منه في معرفة لغة الحديث لأنهم أصلاء في العربية وهو دخيل فيها ، فاذا فرضنا انه كان أذكى ذهنا منهم كلهم فلا يعقل أن يصل بالذكاء الى أن يكون هو المصيب وحده في جميع المسائل المختلف فيها ولا يتفق لأحد منهم أن يصيب في مسألة ما على سعة علمهم ومعرفتهم واجتهادهم. ولا يلجأ الى الجواز العقلي وان كان محالا عادياً في مثل هذا الا الجدل المماري ، على أنه مشترك الالزام فكما يجوز أن يصيب هذا في كل مسألة لانه ممكن بالامكان الخاص يجوز أن يكون ذلك هو المصيب ، ويجوز أن يخطئوا جميعاً ، وكما يجوز هذا عقلا يجوز شرعاً اذ ليس احد منهم معصوماً ، ولكن المعقول الموافق لسنن الله تعالى هو أن كل واحد يخطىء ويصيب الا المعصوم

لا يتوهمن متوهم انني أريد بشيء من كلامي هذا تفضيل بعض هؤلاء الاعلام في اجتهاده على بعض وانما أعتقد أن كل واحد منهم يصيب ويخطئ وان الصواب ليس واجباً لاحدهم ولا وقفا عليه ولا لازما له اذ لا عصمة لأحدهم . وأما قول بعضهم ان مذهبنا صواب يحتمل الخطأ ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب . فانما يصح منه من المجتهد لأن اجتهاده أوصله الى الظن بأن ما ذهب اليه هو الصواب ، ومقتضاه أن يظن ما خالفه خطأ ، وكل منهما يحتمل الصواب بطبيعة مفهومه . وأما المقلد فلا مذهب له وانما ينتمي الى المذهب الذي يجد عليه آباءه وقومه فان تحول عنه فانما يتحول لمنفعة تعرض له في غيره لان المذاهب عبارة عن طريقة يجري عليها المجتهد في استنباط الاحكام ، وأين المقلد في ذلك؟ ولو كان له مذهب يذهب اليه في الفهم والاستنباط لما انتسب الى شخص أحد من العلماء فقيل مالكي وشافعي . واني أراني أطلت في هذه المسألة ولم أكن اريد الخوض فيها ولا هذه العجالة بموضع لها ولكن جمع القلم فلنرد جماحه ولنعد الى ما كنا فيه

واذا كانت قراءة احاديث الاحكام حجة على من يتعمد تأويلها واخراجها عما يتبادر الى فهمه من معناها وإضلالا لمن يتلقى هذا التأويل بالقبول ، فهذا لايتعدى مااختلفت فيه المذاهب والآراء الفقهية من الاحاديث ، ويستفيد المشتغلون بالحديث من سائر الاحاديث آدابا وحكما وعلوما لايجدونها في كتب الفقه ولا في غيرها من كتب العلم . وقد كان من تأثير الاشتغال بها أن صار في الهند طائفة كبيرة تعمل بها وبما يتبادر من الكتاب العزيز لايقلدون دينهم أحدا وانما يستعينون بكلام العلماء على فهم الكتاب والسنة . وهم يسمون أنفسهم أهل الحديث ، ويطلق عليهم عوام الحنفية لفظ « وهابية » وقد يكون فيهم من لم يطلع على شيء من كلام الشيخ محمد ابن عبد الوهاب الذي ينسبونهم اليه . وسيرة هؤلاء الشخصية احسن من سيرة سائر فرق المسلمين المنتمين الى المذاهب ، فهم يجتنبون الفواحش والمنكرات والبدع كلها، ولا سيما بدع القبور ، فاذا زاروها وقفوا عند حدود السنة المأثورة من الدعاء والاعتبار، ويحافظون على صلواتهم وغيرها من الفرائض، يصدقون في معاملاتهم الدنيوية ويتصحون

وجملة القول ان التعليم الديني كان قد ضعف في الهند كما ضعف في سائر الاقطار، وقد طفق يجدد قوته ، ويعيد مافقد من استقلاله ، ويصلح ما فسد من طرقه واساليبه ، ويوشك ان يظهر أثر الاصلاح ونتيجته في (ديوبند) قبل ظهورهما في الازهر

•

الحالة السياسية في الهند

السياسة فتنة انا تركها الكاتب والمؤرخ لاتتركه، وانني رحلت الى الهند وأنا أنوي ان أقصر عملي فيها على اختبار حال اخواني المسلمين في الدين والعلم الديني والدنيوي لا احفل بغير ذلك ولا أعنى بالبحث عنه ، ولا سيما السياسة ، ولكن الحكومة الانكليزية هنالك جعلتني في موضع الثقة واتهمتني بالسياسة فأذكت علي العيون والجواسيس فكانوا أتبع لي من ظلي من حيث افطن لهم ومن حيث لاأفطن . ومنعت جمعية ندوة العلماء مما كانت تريده من اقامة اقواس الزينة وعمدها امام محطة (لكهنو) وفي شوارعها لاجلي ، وكادت تمنعها من جعلي رئيسا لاحتفالها لولا أن أقنع رئيسها الوالي الانكليزي بأنني رجل علم ودين لا رجل سياسة ، وذكر له ان من رأيي ان الجامعة الاسلامية لا وجود لها ولا ضرر في وجودها على الاستعمار الاوربي ، واستشهد على هذا بجريدة انكليزية نقلت هذا الرأي في خطبة للدكتور مرجليوث الاستاذ في مدرسة اكسفورد الجامعة في انكلترة

وقد عملت بما نويت فلم أتعمد البحث في السياسة لذاتها وكنت احسن التخلص من مسائل سياسية فلا أسيء رده ولا اخوض معه كثيرا ولكن جاءني كثير منها عفوا أو نافلة تابعة لمباحث أخرى كبحثي مع بعض الاذكياء المتعلمين في المدارس العالية في الهند وانكلترة وغيرهم عن رأيهم في مستقبل المسلمين مع الوثنيين في الهند، وقد جاء الكثير مما سمعته مطابقا لما كنت أعلمه أو أعتقده استنباطا من الاخبار التي تصل الينا في الجرائد . ولكنني سمعت من الآراء مالم يكن يخطر لي ببال

يعرف اكثر المشتغلين بالسياسة في الاقطار المختلفة ان وثنيي الهند قد ارتقوا في العلوم العصرية وارتقاء أشعرهم بالحياة القومية ودفعهم الى مطالبة الانكليز بحقوقهم في ادارة بلادهم وأحكامها ، وأنهم صاروا يهددون الحكومة باغتيال رجالها ونسف سككها الحديدية ومبانيها الاميرية بالديناميت ، وقد فعلوا ذلك غير مرة ، وهم يحتجون على الحكومة بأنهم مستعدون لكل عمل في الحكومة كاستعداد الانكليز وغيرهم أو هم احسن استعداداً ، ويطلبون منها أن تشركهم مع رجالها في اي القوانين الادارية والقضائية وفي أي العلوم التي يتوقف على اتقانها أي عمل من الاعمال في أي فرع من فروع الحكومة ومصالحها ، فان لم يكونوا أعلم منهم فلا تقبل لهم طلبا . وكذلك يطلبون تجربتهم في تلك الاعمال فان لم يقوموا بها كما يقوم بها العمال من الانكليز ، وحسن منهم يعذرونها في حرمانها اياهم أو اعطائهم دون حقهم منها

وهم في اقليم بنغاله أرقى منهم في غيره واشد عصبية . وكانت الحكومة قسمت هذا الاقليم الى ولايتين ، وكان من مصلحتها في ذلك ان المسلمين يكثرون في احدى هاتين الولايتين فيكون لها العذر بأن تكثر من عمالهم فيه ـ وعملهم معما ـ فيضعف بذلك نفوذ الوثنيين ، فما زالوا يلحون في جعله ولاية واحدة كما كان ، ويهددون الحكومة اذا لم تفعل حتى اتخذ ذلك ملك الانكليز عند إلمامه بالهند للاحتفال بتتويجه ، وقد ساء ذلك المسلمين اشد الاستياء وعدوه جبنا من الحكومة وخوفا من الوثنيين . ويقال ان أمر الملك بجعل (دهلي) قاعدة الممالك الهندية ومركز حاكمها العام بدلا من (كلكته) قد قصد به ارضاء المسلمين وتطييب قلوبهم لانهم كثيرون في دهلي وولايتها ، وكانت عاصمة ملكهم من قبل . وقد التزمت الحكومة للمسلمين حفظ حقوقهم في الوظائف في بنغاله ، وان كانوا الآن ستة في المائة من مجموع أهلها (كالقبط بالنسبة الى مسلمي مصر) وكانوا في أحد قسميها السابقين زهاء الثلث .

لم يمنع هذا بعض المسلمين من اظهار السخط الشديد للحكومة والتشديد في انتقادها ولومها في الجرائد وكان النواب وقار الملك ممن كتب في ذلك كتابة شديدة على أناته ووقاره وسنه ، فما بالك بالشبان كالكاتب البليغ صاحب جريدة (زميندار) التي أنشئت حديثا في لاهور ، فانه كان شديد المعارضة ، قوي العارضة ، حتى أحرج صدر الحكومة فحملته غرامة حملتها عنه الأمة وأظهرت الميل اليه ، والحدب عليه، وانبرى للرد عليه صديقنا صاحب جريدة (وطن) وحمي الوطيس بينهما ، ولم تخل الردود بينهما من المطاعن الشخصية ، ورأيت عقلاء المسلمين في المدن التي زرتها قبل زيارة لاهور متألمين من هذا الخلاف بين الجريدتين ، ويتمنون اصلاح ذات بين الكاتبين ، ولا يجدون الى ذلك سبيلا ، وقد وفقني الله تعالى للاصلاح بينهما فن كل واحد منهما قد أكرمني بحقيق رجائي بعد ان حاول اقناعي بعذره وكون الحق معه ، فأنا اشكر لهما ذلك واسأل الله لهما التوفيق في خدمة امتهما

كان المعروف عندنا بمصر أن حكومة الهند تتألف المسلمين وتساعدهم على الارتقاء لتجعلهم في وجه الوثنيين الذين طفقوا يجاذبونها زمام الحكم في البلاد ، وان المسلمين ضلعهم مع الحكومة يفضلونها على الوثنيين ولا يريدون الاتفاق مع الوثنيين عليها. وقد ظهر لي من كلام كثير من أهل البصيرة تفصيل في هذه المسألة ، مجمله أن سياسة الحكومة غامضة فيها بعض رجالها يظهر الميل الى المسلمين والرغبة في ارتقائهم ولكن مع الاحتراس في العمل ، وبعضهم يظهر الميل الى مراعاة قوة الوثنيين ، ولأجل هذا يوجد في المسلمين أناس يرجحون الاتفاق مع الوثنيين وان يكونوا معهم إلبا(١) واحدا على الحكومة، وأكثرهم يرجحون جانب الحكومة ، ويرجون بالاخلاص لها ان يرتقوا في العلوم والوظائف ، ويرون أن الوثنيين لا ينصفونهم ، ولا يجعلون لهم حظا من الحكم يليق بهم اذاهم ظفروا بما يسعون اليه من الاستقلال. وقد سمعت من بعضهم ان الوثنيين يستميلونهم اليهم ، ويقولون لهم انتا امة واحدة يجمعنا وطن واحد ، وهؤلاء الانكليز يحتقروننا جميعا فيجب ان نكون إلبا واحدا عليهم

الحكومة الانكليزية بارعة في اقامة ميزان السياسة بين الشعوب والانتفاع من الخلاف بينهم ، ولكنني أظن أن الموازنة الحاضرة بين مسلمي الهند ووثنيها لا تسوء أحدها ، فاما ان تجعل هذه الحكومة أمرها في مساعدة المسلمين على الارتقاء الصحيح الذي يساوون به الوثنيين فيكونوا كهم معها ظاهرا وباطنا ، واما ان تأتيهم بالتامة حتى

(١) الالب القوم يجتمعون على عداوة واحد

يعتقدون أنها تعبث بهم فيكونوا كلهم مع الوثنيين إلبا واحداً ، وحينئذ يتغير وجه السياسة في الهند وان كانت قوى الانكليز الادارية والسياسية والمالية والآلية تكفل لهم طول زمن الاستيلاء التام على تلك الممالك الواسعة مادامت لاتخاف ان تعارضها فيه قوة خارجية ، بل هي تضم فيها كبيرا من ايران الى الهند وبلوخستان وتطمع فيما هو أعظم من ذلك والى الله المصير .

نهضة آسيوية

كتب المستشرق المجري « فامباري » الاستاذ في جامعة « بودابست » (١) في مجلة القرن التاسع عشر في عدد ابريل (نيسان) من هذه السنة بحثاً مسهباً تحت عنوان « المسلمون والبوذيون » طعن فيه بالنهضة الآسيوية عموماً وبالحركة الاسلامية خصوصاً وهو الذي كتب مقالات ضافية في مجلة القرن التاسع عشر هذه على أثر خلع السلطان عبد الحميد بسط فيها آراءه في ذلك الخليع وفي رجال الدولة العثمانية كافة وتوسع في نقد عادات الاتراك وسلاطينهم وطعن بهم وبوزرائهم أقبح طعن ، ونسب الى السلطان عبد الحميد الجهل والتعصب وفساد الاخلاق وسوء التربية ومما قاله عن سعيد باشا الصدر السابق : إنه كالثعلب آية في الاحتيال والمخادعة .

وقد كانت عربت جريدة الافكار التي تصدر في البرازيل مقاله هذا في حينه وعلقت عليه تعليقاً وصفت فيه ذبذبة هذا الرجل الطائر الصيت وذكرت غشه وخداعه وتناقضه وقالت فيه مجلة المقتطف وقتئذ : ان عمل الاستاذ هذا يحط بقدر العلم ويخل بشرف العلماء ،

وقالت الافكار في عدد ٦٢٨ الذي نلخص عنه هذه المقدمة ونتبعها بنقل مقالته الآنفة الذكر عنها ــ قالت :

« أمامنا الآن مثال آخر على رياء ذلك المستشرق وخداعه الرأي العام ، ونعني

---

(١) فامباري هذا كان استاذاً خصوصياً للسلطان السابق وقد أقام في قصر النجم « يلدز » زمنا طويلا وكان يطري سياسة السلطان عبد الحميد ويحط من قدر الشعوب العثمانية لما كان يقدمه السلطان في مقابل ذلك من الدنانير العديدة ولم يكن الاستاذ ليبالي بتضليل الرأي العام الاوربي فيما كان يجدع به دائرة المعارف البريطانية وغيرها وفامباري هذا له معرفة بكثير من البلاد الاسلامية

طمنه الحاضر بالنهضة الاسيوية عموماً والحركة الاسلامية خصوصاً وهو الذي كان سابقاً يؤيد المسلمين ويتظاهر بصداقة عموم الاسيويين قائلا بوجوب مساعدة زعمائهم المفكرين ورجالهم الناهضين . تالله الآن يكتب قائلا « اقطعوا البرعم قبل أن يزهر ويثمر » اهـ

الحق أن أمثال هذا المستشرق في السياسيين والدينيين كثير في أوربة ولكن قل أن يوجد مثله في رجال العلم بمخادعته وتناقضه

على أن ذنب الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً الوحيد أمام أوربة السياسية والدينية هو اننا نريد أن نحيي فنحن مؤاخذون بهذا الذنب ولو لم يصل الى حيز العمل بل قبل أن تعدوسائله ، فالويل لآسية من يوم عصيب اذا لم تنهض نهضة المستميت وتتدارك مافات من التقصير والا فانها واقعة في حبائل أوربة الاستعمارية لا محالة وهذه هي مقالة فامباري وفيها مثال واضح من حب الانسانية وخير البشر !! العبرة لمن يعتبر قال :

﴿ المسلمون والبوذيون ﴾

العجم ، وطرابلس الغرب ، ومراكش

« ثلاثة مراكز اسلامية هوجمت بوقت واحد فما هو سبب هذا الهجوم ياترى ? أعارض فجائي هو أم صدمة سياسية مدبرة ، بالحقيقة ان الصليب لم يضرب الهلال ضربة أشد من هذه الضربة الحاضرة ولم يقتحم خطراً شبيهاً بالخطر الحالي

« كان الغرب منذ مئات من السنين يحارب الشرق حرباً طبيعية لامفر منها وصار الشرق مغلوباً من بدء القرن التاسع عشر وما برح مغلوباً حتى الآن والمسلمون يزيدون جهلا وفقراً وذلا مما أطمع بهم الاعداء . ورغماً من قيام عدد من المفكرين فيهم فان السواد الاعظم عندهم ما زال حتى الآن غارقاً في بحار الجهل والاوهام ومصاباً بداء الفقر العضال مما حمل الناهضين منهم على اليأس فقطعوا الرجاء من الاصلاح وجلسوا بحياء ممزوج بامتعاض وغضب على مجالس الاوربي يتعلمون منه مبادئ العلوم العصرية وهم على جانب عظيم من الذكاء والمهارة . ولكن الامم كالأفراد لانها مجموعة افراد . والفرد لا يتغير فجأة بل عليه أن يطرح الثوب العتيق ويؤهل ذاته للبس ثوب جديد يليق بالحياة الحديثة . والمسلمون عموماً يصعب بل يتعذر عليهم التحول الفجائي لان عليهم اولا نبذ اعتقادات وعادات قديمة ومر...

نهضة دوائهم وتكييف طباعهم لقبول تعاليم جديدة . وأوربة ترى هذه المحاولة من جنب المسلمين منذ مئة سنة وشعوبها تقف متفرجة مسرورة من ذلك النهوض في الامم الشرقية ولكن الحكومات تقف مذعورة منها فتضع العراقيل وتزيد الصعوبات وكأنها تقول : ياشرق ! أبق خاملا جامداً فقيراً الى ما شاء الله

« تقف حكومات أوربة مذعورة تجاه نهضة الشرق هذه تعد المعدات السرية خفيها وهي تتظاهر بوجوب حفظ الامن في تلك الاماكن الناهضة أو بوجوب تمدينها وحمايتها . والصحيح هو ان اوربة لا يهمها من التمدن ولا من شيء بل همها الوحيد هو مثلث الاركان أي : امتلاك واستعمار بلاد جديدة أولا . وفتح أسواق جديدة لمصنوعاتها ثانياً . ومد نفوذها الادبي وسطوتها السياسية ثالثاً . ولولا تحاسد الدول الاوربية ووقوف بعضها بالمرصاد للبعض الآخر لكانت آسية في قبضة أوربة منذ مئة سنة

« وقد نجح بعض دول أوربة فتحين فرصاً مناسبة وقبض بيد من حديد على قليل من تلك الاملاك الآسيوية السائبة فامتلكها أو احتلها أو استعمرها . ولما تقوى البعض الآخر من دول أوربة ورأى ان تلك الغنيمة على وشك الفرار من يده فيما اذا صبر حتى يتعين فرصة قد لا تجيء مطلقاً قام فوثب بغتة على املاك اسلامية من دون حجة ظاهرة أو عذر مقبول قائلا بلسان حاله : انكم ايها المستعمرون السابقون التهمتم كثيراً فاتركوا لغيركم شيئاً من الفريسة المعدة للاقتسام . هذه هي الاسباب الحقيقية لغزوة العجم وطرابلس الغرب ومراكش ولا صحة لما تحتج به أوربة قائلة : ان العالم الاسلامي بربري همجي وليس فيه شيء من الامن والنظام وعلينا تمدينه وحفظ الامن فيه

« بيد انا لسوء الحظ لا نقدر على انكار شيء من هذه الحجج واعني وجود خلل في الامن والنظام ووجود الجهل والتأخر في مراكش كما في العجم وطرابلس الغرب . ففي مراكش أراض خصبة ومعادن كثيرة ولكن سكانها لا يعرفون كيف يستثمرونها ولا خلاف في ان دولة متمدنة مثل فرنسة تعرف كيف تنتفع وتنفع من هذه الخيرات الطبيعية الجزيلة في بلاد الغرب . وفي طرابلس الغرب أيضاً كان الجهل والفقر ضاربين اطنابهما ولكن هذا مهما كانت حقيقته واضحة فان الرأي العام لم يبرر عمل ايطالية بغزوها تلك الولاية العثمانية بل أجمع على تقبيحه وعدما عمل ايطالية فرصنة وخيانة وخرقاً لحرمة المعاهدات الدولية واعتداء على حقوق الامم الضعيفة والمستضعفة

«وقد كان بالامكان إسعاد حالة "طرابلسيين تحت حكم تركية الدستورية الجديدة ولكن من الواضح ان حالة تركية الاقتصادية والسياسية لا تؤهلها لترقية تلك الولاية بالسرعة المطلوبة كما هو المأمول من دولة أوربية مثل ايطالية (قالت الافكار من هنا بدأ الاستاذ بالتحيز الاعمى الى جانب أوربة) واذا راجعنا التاريخ نعلم ان حالة أفريقية الشمالية كما كانت على زمن الرومانيين القدماء أفضل بكثير مما هي اليوم على زمن الحكم الاسلامي فيها . وأينما سرت في شمالي افريقية من مصر شرقاً الى مراكش غرباً ترى الخراب والدمار وسائر نتائج الاهمال والفساد . وعند ذلك لا بد لنا من أن نتساءل قائلين : ألم يحن الوقت للقضاء على تعصب العرب وبربريتهم قضاءً مبرماً وسريعاً حتى نستريح من عوامل التخريب هذه ؟

« وماذا نقول عن العجم ايضاً ؟ كان الاعجام فيما مضى آية في الحذق والفطنة فصاروا في القرون الاخيرة على غاية من الانحطاط والفقر بسبب فساد حكومتهم وجهل حكامهم . وحيثما سرت في بلاد فارس ترى الفوضى والقلاقل والثورات . ولا هم للحكام الا مشاركة اللصوص وقطاع الطرق في ابتزاز أموال الناس وازهاق أرواح العباد . واني لا أزال أرتجف حنقاً من ألم الذكرى التي طبعت في مخيلتي بعد ما سحت في بلاد فارس ورأيت فيها من المظالم ما تقشعر منه الابدان. وها ان ملكوم خان سفير العجم سابقاً في باريز وابراهيم بك الفارسي كتبا ما يؤيد ما أنا بصدده الآن من فساد الحكام وجهل الرعية وهدم كل مباني العدالة و الرقي في تلك الديار الخصيبة الواسعة

«أليس من العدل اذن أن تغير أوربة على بلاد مختلة معتلة كهذه ؟ فمجرد وجود دولة أوربية في بلاد فارس كاف لوجود الامن والنظام فيها ولجعل اهليها يتنشقون هواء الحرية فينبضون من سباتهم العميق ويزيحون من أمام تقدمهم واسعادهم كل عثرة كالتعصب الديني الذي كان وما برح عندهم من اكبر عوائق التمدن والترقي . وحكومات أوربة العالمة هذه الامور صار لها نحواً من مئة سنة تسعى للدخول الى الممالك الاسلامية تدريجاً ونزع استقلالها . وهكذا أصبحت كل البلدان الاسلامية تحت رحمة أوربة ولا أستثني منها الحكومة العثمانية أيضاً لان الامتيازات الاجنبية الموجودة في تركية هي وحدها كافية للدلالة على ان تركية مغلولة الايدي وتحت مطلق تصرف الدول وليس استقلالها إلا إسمياً ظاهرياً

«وأمير الافغان ولئن كان متمتعاً الآن بلقب «صاحب الجلالة» ولكنه هو دائماً

ادرى من الغير بان انكلترة لم تدعه يتلذذ بهذا اللقب الا من باب المجاملات السطحية التي لا معنى حقيقياً لها على الاطلاق

«دري المسلمون هذه الحقائق فشرع المتنورون منهم يرفضون التمدن الاوربي الذي أدخلته اليهم الدول بحد السيف ويقولون انهم يؤثرون الاستبداد والظلم والفساد الوطني على التمدن والنظام والعدل الافرنجي. وها أن أفضل المفكرين منهم وخصوصاً الاتراك جهروا بافضلية حكم وطني ولو كان اقبح من حكم عبد الحميد على الحكم الاوربي مهما كان حسناً تاماً. وخطة الاتراك هذه معقولة لانهم وهم عنصر قليل في الامة العثمانية قاموا ونادوا بالجامعة الوطنية ولا يسعهم الا الضرب على وتر الدين الحساس اولا حتى يتقووا بانضمام المسلمين العرب والاكراد اليهم. والعرب الذين حكموا العالم قروناً عديدة باسم الدين الاسلامي يعسر عليهم الاقتناع بوجوب نبذ الجامعة الدينية جانباً ما لم تجبرهم أوربة على ذلك الاقتناع بحد السيف وقنابل المدفع

نهضة عامة في كل آسية

«ولما درى عقلاء المسلمين عظم الصعوبات التي امامهم قاموا اخيرا يفتشون على مخرج لهم من ذلك المأزق الضيق الذي وضعتهم اوربة فيه. وظهرت بوادر شروره عليهم في الاونة الاخيرة باكتساح العجم وطرابلس الغرب ومراكش ومضايقة حرب تركية الفتاة لدرجة متناهية فالتجأوا الى الجامعة الشرقية الوطنية وهكذا اضطر المسلمون آخراً الى مصافاة اعدائهم السابقين والى الاتحاد مع ابناء آسية عموماً ناسين الاحقاد القديمة ونابذين الضغائن السالفة التي كانت السبب الاكبر في تضعضع الشرق وضعف الشرقيين. وأول مظهر من هذه المظاهر السياسية كان اتحاد المسلمين مع الوثنيين في بلاد الهند

« ان الدين المحمدي يقسم الناس الى قسمين: المجوس وأهل الكتاب. وأهل الكتاب عنده هم النصارى واليهود وهؤلاء لهم حق الحماية والرعاية ضمن الشروط. أما المجوس وعبدة الاوثان فليس لهم ذلك الحق مطلقاً ولذلك كان سلاطين المغول المسلمون في الهند يستحلون اموال البوذيين والبراهمة وارواحهم واعراضهم ولم ينقطع هذا الامر الا بعد ان احتلت انكلترة الهند وامتلكتها اخيراً بحد السيف. وقد نتج عن هذا الامر ان فريقاً كبيراً من سكان المجوس القدماء قطنوا الهند حيث عرفوا باسم بارسي وكانوا اقوى نصير للانكليز في تثبيت قدمهم ببلاد المغول

الهندية المسلمة انتقاماً من مسلمي العجم واني في كل سياحتي يبلاد العجم وسائر آسيا المسلمة لم أسمع من أتباع محمد سوى ذم المجوس وتحليل قتلهم وتعذيبهم .ولذلك فلا غرابة اذا كان فريق البارسي قد أيد انكلترة في الهند وكان لها عوناً في الحروب

ومسلمو القوقاس وتركستان وخيوى والصين وبخارى على ذات العقيدة وهؤلاء كانوا يدعون اليابانيين والصينيين ايضاً مجوساً وعبدة أوثان ويضمرون لهم البغض والاحتقار وبعد هذه المقدمات ألا يندهش القارئ عندما يعلم أن كل أولئك المسلمين يبدون الآن عطفاً على أهل اليابان والصين والهند كافة و يقولون انهم هم وأتباع بوده وبرهمه وكونفوشيوس اخوان ؟ حقاً ان هذا الاتحاد الجديد والانضمام القريب يقضي بالعجب العجاب . ولكنه اتحاد حقيقي لا ريب في وجوده . تعرفه حكومات أوربة الآن ويتهامس به وزراؤها وراء جدران مجالسهم حاسبين له الف حساب

أو تدرون ما سبب هذا التفاهم الجديد في أهل آسيا ؟ سببه انتصار اليابان الاخير على روسية

كانت اليابان قد انتصرت سنة ١٨٩٥ على الصين ولم يعرها العالم الاسلامي ولا الآسيوي على روسيا أقل اهتمام ولكن انتصار اليابان على روسية الاوربية سنة ١٩٠٥ كان له وقع عظيم في نفوسهم استفزهم الى الثورة الوطنية فبدأوا في الهند والصين كما في العجم وتركية يتداولون ويقولون فلننبذ كل شقاق داخلي وكل خلاف ديني من بيننا ولنقتد باخوتنا اليابان والا داستنا أوربة باقدامها وافنت استقلالنا ومحقت كياننا . والفضل الاكبر في هذه النهضة الوطنية الاسيوية الجديدة يعود الى المسلمين من المسلمين هم الذين بدأوا بايجادها وألحوا رغماً عن الصعوبات الجيوغرافية ومن المسافات الشاسعة التي تفصل بينهم وبين املاك آسية المشتتة البعيدة . واني لا أنسى كيف كانت تتغنى الصحف التركية والعربية والفارسية والهندية المسلمة بمدح طوغو ونوديجي وكوركي وغيرهم من قواد اليابان الذين انتصروا على روسية . ولا أنسى أيضاً ان بعثة اسلامية سافرت الى اليابان للتبشير بدين محمد

واليابانيون المشهورون بالحنكة والدهاء حاولوا أن يرجعوا من هذه الحركة الاسلامية نحوهم ولكن السلطان عبد الحميد كان أشد حنكة واكثر دهاء منهم لم يقع ولا نفخ من الفخاخ السياسية العديدة التي نصبها ساسة اليابان له ولما غرقت البارجة العثمانية (ارطغل) بكل من كان عليها من البحارة العثمانيين على شواطئ اليابان منذ سنوات قليلة أبدت اليابان مشاركة حاسات وروح أخوة نحو تركية جعل قيصر يلدز يومئذ

أن يشعر بوجود جامعة أوصلة تربط تركية باليابان. وأوربة تعرف جيداً أن مخابرات كثيرة جرت بين طوكيو والاستانة والارجح أنها لا تزال جارية الى الآن بطرق سرية وغير رسمية . واني عالم بسفر عدد كبير من شيوخ المسلمين الى الصين واليابان ومعهم مبالغ طائلة من المال ليصرفوا بسخاء على اخوانهم المسلمين في أقصى أقطار الشرق ويحملوهم على التآخي مع جيرانهم البوذيين وعلى اتخاذ الاستانة مقر الخليفة أمير المؤمنين كعبة لهم وملجأ اليهم

« ومن جملة سياحهم الشيخ سليمان شكري افندي من علماء الاناضول الذي عاد سنة ١٩٠٧ من سياحته في الهند والصين واليابان فنشر كتاباً في بطرسبورج سماه « سياحتي الكبرى » ضمنه الطعن بالحكومة الانكليزية نظراً لما رآه من صرامتها وتجبرها التي لا تطاق وقال ان حكومة الصين أفضل وأكثر اعتدالا وتسامحاً من حكم المستعمرين الانكليز ونصح الصينيين بالانضمام الى المسلمين حتى يرفعوا عنهم نير الافرنج الثقيل وقد ظهرت بوادر الاتحاد والتفاهم بين المسلمين وأهل الصين وكانت أسبابه الجوهرية موردهم المتبادل من شدة وطأة الحكم الاجنبي والسيطرة الاوربية الثقيلة عليهم . وبعد الحرب الروسية اليابانية صار الفريقان يجهران بهذا الاتحاد وقد كانا أولا يتهامسان به سراً فيما بينهما

« ولما نشبت الثورات الاخيرة في الصين وفي شرقي تركستان ومقاطعة يونان كان الصينيون يحسنون معاملة المسلمين لدرجة قصوى . وفي ثورة البوكسر الاخيرة التي أنفقت بلاد أوربة قاطبة كان للمسلمين الصينيين اليد الكبرى في الهجوم على الافرنج والاسفية في اظهار بغضهم نحو كل ما هو أفرنجي . وقد تمادت حكومة الصين في مناصرتها المسلمين حتى أنها لم تقتصر على تأييدهم ومساعدتهم فقط بل انها أصدرت لهم جريدة في مدينة إيلي لا تزال تطبع الى اليوم باللغة التركية وخطتها حث المسلمين الصينيين على الاشتراك مع اخوانهم في الوطن سائر الصينيين عموما ضد الافرنج . وقد قرأت تلك الجريدة آخراً وهاك مثالا على ما تنشره .

(ان أوربة قد أصبحت معتدية وكثيرة التطلب منا . وطلبها مقرون بوقاحة وغطرسة. وقصدها الوحيد هو نزع استقلالنا وقتل حريتنا .فعلينا بالاتحاد والا فنينا. وعلينا باقتباس العلوم الحديثة حتى نقوى ونثري ونستغني عن مصنوعات الافرنج كلها . اه)

وقد اتضح آخراً ان المسلمين هرعوا في الصين الى نصرة زعماء الحرية في امبراطورية ابن السماء فكانوا من أقوى العاملين على الغاء الحكم الامبراطوري وطرد عائلة المانشو المالكة وانشاء حكم جمهوري دستوري يبشر بالحرية والمساواة ولذلك فلا عجب اذا قال زعيم النهضة الصينية الجديدة الدكتور «صن يات صن » في حديث صحافي له في ثغر مرسيلية ما يأتي : —

« ان الصين سوف لا تنسى ما فعله نحوها اخواننا المسلمون الصينيون من التأييد والمساعدة في سبيل اعادة الامن والحرية الى بلادنا . حقاً ان أوربة تخطىء نحو الاسلام فتحسب ان الجامعة الاسلامية كالخطر الاصفر كابوساً ثقيلاً على صدورها.اه

« ولم تتعهد الصين بالائتلاف مع المسلمين بل جاراها بذلك القسم الاكبر من أهل الهند الانكليزية وأعني البوذيين . وهذا التفاهم والتقرب بين هاته العناصر الشرقية يجب أن تعرفه أوربة فتعد له العدة وتحسب له الحساب . أما من حيث خطر الجامعة الاسلامية فهو قليل على ما أرجح ولكن خطر الجامعة الاسيوية أو الجامعة الشرقية فهو كبير ووجود تلك الجامعة أمر راهن لا ريب فيه

« صرفت سنوات عديدة في قصر يلدز واشرفت عن كثب على حركات عبد الحميد واعوانه فعدت كل مساعيهم التي بذلوها في سبيل انشاء الجامعة الاسلامية ، وقرأت بعض التقارير التي قدمها نشاما وسل عبد الحميد الى سائر انحاء العالم الاسلامي . فتحققت ان انشاء جامعة تجمع كل مسلمي الارض تحت لواء واحد وغاية واحدة هو ضرب من المحال . وما التخوف الذي تبديه أوربة من هذه الجامعة سوى تخوف وهمي . وكيف يعقل ان جميع المسلمين من سائر الاجناس والاماكن يتحدون على شيء واحد وهم متشتتون متباغضون متحاسدون ؟ نعم انه يعقل عندنا انشاء جامعة صقلبية في البلقان تحت حماية روسية كما يعقل اتحاد ايطالية والمانية ولكن لا يعقل قط اتحاد مسلمي مراكش بمسلمي العجم ولا بتم اتفاق أتباع محمد في الافغان مع أتباعه في تركية وقس على ذلك استحالة اتحاد مسلمي أفريقية مع مسلمي آسيا وهلم جرا

« ان مسلمي الهند وعددهم ٦٠ مليوناً لهم تأثير محسوس عند ما ينصب الميزان فيرجحون الكفة التي تجاوزون اليها ، ولكن سوء حكم المغول المسلمين في الهند سابقاً مع وفرة عدد الهنود غير المسلمين يكفل لنا محق النفوذ المحمدي هناك وخصوصاً اذا أحسنا سياسة المئتي مليوناً من الهندوس والبراهمة والبارسي والبوذيين ، وفضلا عن ذلك فان الحكم الانكليزي العادل في الهند جعل مسلميها مسروري الخاطر

مرتاحي البال فصار يصعب عليهم مقاومة الانكليز ومعاداتهم وأما المسلمون الموجودون تحت حكم افرنجي غير الانكليز فهم قلال العدد فقراء ضعاف لا يحسب لهم حساب

« بيد اني أوجه أنظار أوربة الى شذوذ واحد فقط وهو حالة أتباع محمد في القطر المصري ، فان النهضة المصرية الاخيرة وتكاثر عدد المسلمين في أفريقية تكاثراً متواصلا مستمراً مما يجعل المسألة الاسلامية في تلك القارة شديدة الخطر خصوصا لان القاهرة أصبحت مبعث العلوم والآداب العربيـة ، وها ان سماعيل غصبرنسكي وهو من أقوى المفكرين المتنورين بينهم لم يقدر على جعل الاستانة العلية مركزاً للمؤتمر الاسلامي العام الذي سعى في انشائه منذ بضع سنين بل جعل القاهرة ذلك المركز المرغوب ، نعم ان تركية قالت يومئذ انها لا تسمح للمؤتمرين بالاجتماع في عاصمتها حذراً من « ظنون سياسية » ولكن اسماعيل وأعوانه صرحوا بحذف كل مادة ترمي الى غرض سياسي من لائحة مؤتمرهم وجعلوا تلك اللائحة مقتصرة على الابحاث التعليمية والدينية فقط

« والخلاصة أن أوربة مدركة سر شوقها على المسلمين فهي لا تحسب لجامعتهم حساباً. ولو كان اتباع محمد يتفقون حقيقة لو اجتمعوا للبحث والمداولة لكانوا اتفقوا منذ زمن طويل في مكة والمدينة حيث تجمعهم فريضة الحج سنوياً بمئات الالوف ومن سائر الاقطار والاجناس والالسنة والعناصر وحيث يسمون الأئمة يعظونهم قائلين لهم: « انما المؤمنون أخوة » وعندي ان على المسلمين نبذ هذه الفكرة أي فكرة الجامعة المذهبية لانها لا يمكن ان تحقق كما انها لم تحقق قط عند الامم المسيحية كما ينبئنا التاريخ وأحسن نصيحة أقدمها الى المسلمين هي وجوب اقتباسهم العلوم الحديثة حتى تتنور اذهانهم وتزيد ثروتهم وتحسن صناعتهم فيصيروا قادرين اذ ذاك على مقاومة أوربة عندما تنوي الدول مهاجمتهم واكتساح بلادهم عنوة واقتداراً . ولكن المسلمين لم يعملوا ذلك الآن بل تراهم حتى اليوم ينشرون التعاليم الدينية لاجل مقاومة التعاليم الزمنية ومحاربة العلوم العصرية . ولا انكر ان الحماس الديني في العالم الاسلامي في الوقت الحاضر قد بلغ أشده . وانك اذا زرت اقصى مدن آسية واشرفت على حالة المسلمين فيها ترى الجرائد التركية والفارسية في بيت كلٍّ منهم وترى الاعانات المالية ترسل تباعاً من الآستانة والقاهرة وقازان وبومباي الى اخوانهم الفقراء في اقصى سيبيرية والصين ! ! وامير بخارى الحالي المير حليم الذي درس في أحسن جامعة روسية لم يقو على ادخال العلوم العصرية الى بلاده لان الصحافة الدينية في بلاده

قاومته واتهمته بالكفر والزندقة وتمثلت « الافكار » بقول الشاعر

فالشر كل الشر ما بين العمائم والقلانس

ولما نشبت الحرب العثمانية الايطالية الاخيرة صرت ترى الاعانات المالية ترد متوالية الى الآستانة من التتر والتركان والافغان والهنود والقوقاسيين والعرب وسائر الجنسيات التي دخل اليها الاسلام . واهتمام الصحافة المسلمة قاطبة بهذه الحرب اشدّ بكثير من اهتمامها بالحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ . ولما قابلت مؤخراً بين مجموع التبرعات التي أرسلها اتباع محمد في الحرب الروسية العثمانية مع مجموعها الاخير في الحرب الحاضرة اعترتني دهشة وذهول لانني وجدت الفرق بين المجموعين جسيماً جداً . وهذا يعني وجود نهضة اسلامية كبيرة لا يمكن ايّاً كان انكارها او التقليل من اهميتها

« وهذه النهضة ولئن قلت بعدم الاعتداد بها من الوجهة الدينية لكنني اكرر التحذير من عواقبها من الوجهة الوطنية . اي ان المسلمين في الهند بعد اتحادهم الديني عقدوا اتحاداً آخر وطنياً مع البوذيين وهم يحاولون الآن الائتلاف والتئام مع البراهمة . وكلما زادت غطرسة الانكليز نحو عنصرهم وكثرت مطالبه منهم كلما زادت نار بغضهم له اشتعالا . وبوادر الاتحاد ضد الحكم الاجنبي عندهم قد ظهرت في حوادث عديدة . فالصين التي كانت تحارب مسلمي مقاطعة يونان عندها صارت اليوم تصدر لهم جريدة تركية على نفقة خزينة الحكومة ، والصين التي كانت تكره ذكر محمد اصبحت اليوم تبني الجوامع وترمم الزوايا من مال الخزينة اوضاء لرعيتها المسلمة ، وهذه صارت تجهر علناً بكره النصارى وخصوصاً الافرنج منهم ، وبالاختصار أقول ان كل الجنسيات والاديان في آسية قد اتفقت آخراً ضد عدو واحد هو أوربة — اي ان الشرق ناهض وعلى الغرب ان يستعد لمقابلته في ساحة العراك ، وامام اوربة اليوم مسألة هامة هي هذه : —

أليس من الحكمة ان تدير ضربة قوية قاضية تخمد انفاس هذه الحركة الاسيوية الحديثة وتقطع البرعم قبل ان يزهر ويثمر ، أم التحرش المستمر والنكث المتواصل بفترات متقطعة مما يكفل لنا خنق هذا الطفل وهو في مهده

أما رأيي أنا فهو : « اقطعوا البرعم قبل ان يزهر فيثمر » قالت الافكار (هذا مطابق لما تقوله العرب : « اخنقوا الطفل في مهده »)

الشعر العصري

﴿ زفير الفقير (*) ﴾

ارقت وما قلبي بإسماء يكلف　　ولا مدمعي من حرقة البين يذرف
ولا شاقني وادٍ من الجزع مؤنق　　لعمري ولا ظل من القاع مورف
شجتني أعاجيب الحياة فانها　　اوابد للمقدور ليست تعرف
يكل ضياء الفكر عنها كأنها　　على ابنها قطع من الليل مسدف
رأيت لو البأساء في الجو ترتقي　　لشق على بدر الدجى فيه موقف
ولو ترتمي يوماً بمتسع الفضا　　لاضحت خريق الريح في القيد ترسف

***

رأيت سليل الفقر يعمل في الثرى　　مكباً على محراثه يتلهف
يخد (١) اديم الارض خداً كأنه　　له قبل الغبراء ثار مخلف
كأني به نادته للحرب فاغتدى　　يكر عليها بالحديد ويعطف
كأني به اذ فرق الترب والحصى　　يفتش هل في باطن الارض منصف
كأني به اذ خط في الارض قبره　　يهم على جثمانه ثم يصدف (٢)
به آية الجهد الذي ليس ناهضاً　　به بشر غض البنان مهفهف
جبين برفض الصبيب (٣) مضمخ　　وشعر علنص (٤) الغبار مغلف
وجيد خفوق الاخدعين (٥) كأنما　　تبينت من اوداجه (٦) الدم ينطف
وثبت لمكروب سحابة يومه　　اذا قر منه معطف ماج معطف
اذا زلزلته سرعة الخطو اوشكت　　اضالعه في زوره تتقصف
كأن ارتجاج الصدر قد وتينه (٧)　　فلم يبق الا نشقة تتصرف (٨)

(*) للشاعر المعروف الامير نسيب أرسلان (١) يشق (٢) يمتنع (٣) العرق والمضمخ الملطخ (٤) الملتص المتقارب الاجزاء (٥) الاخدعان عرقان في صفحتي العنق والخفوق المضطرب (٦) يقصد الودجين وهما عرقان في العنق ينتفخان عند الغضب وينطف يسيل قليلا قليلا (٧) الوتين عرق لاصق بالقلب اذا انقطع مات صاحبه (٨) النشقة بفتح النون فواقة خفية عند الموت ج نشقات

كأن ازيز الجوف عند وجيبه حسيس هشيم والندى يتوكف (١)
تشقق عنه الثوب فالريح قد غدت تصافح منه جلده حين تعصف
واثبت وقع الشمس في ام رأسه بالا فراش العظم منها منقف (٢)
تبطن منثور الغبار جفونه تضرج منها مقلة تحصف (٣)
كأن حماة الشوك في ذيل برده طراز حواه العبقري المفوف (٤)
يمد الى الجبار كفاً تكدحت (٥) انامليها والله بالعبد اراف

***

ولما تفض اليوم الا اقله تراجع نحو البيت في السير يدلف
اذا مد عند المشي رجلا امامه توهمت عنها أختها تتوقف
يساقط نثر الطين عنه اذا مشى كما فض ختم الدن سكران معنف (٦)
اذا صادفته « المركبات » وفوتها من الركب هيفاء القوام واهيف (٧)
رمته العتاق السابحات بثقلها ومرت كما مر النعام المزفزف (٨)

***

ولما أتى مأواه خفت عياله اليه كآرام على الشيح تعكف (٩)
يلاقونه صور الرقاب من الاسى فيرنو اليهم ساعة ليس يطرف (١٠)
ثماني بنيات كافراخ وكنة وفي المهد مهلوك التجاليد يهتف (١١)
وخاشعة الالحاظ روع قلبها زمان يكب النيرات ويكسف
وما عدمت أم البنين وسامة ولكن مس الضرّ للحسن متلف (١٢)
قرت زوجها مما تسني واته حثالة زيت والرغيف المقفقف (١٣)

---

(١) الازيز الصوت والوجيب الخفقان والحسيس الصوت الخفي الضعيف ويتوكف يتقاطر (٢) فراش الدماغ عظام رقيقة تلم القحف ومنقف مشقق (٣) ضرج صبغ بالحمرة وتحصف الجلد تقشر (٤) العبقري ثوب مثلثن و منمنه والمفوف المخطط على الثوب أبيض وأحمر (٥) تكدحت تخدشت (٦) العنف الاخذ بشدة (٧) يقصد العجلات أو العجلات وهي مايسمى بالربات واحدتها عربة أو عربية (عامي) (٨) الثقل بضم الثاء البعاق والزفزف الطائر رمى نفسه وبسط جناحيه والرجل جرى شديداً (٩) العيال من تلزمه الرحل نفقتهم والارام جمع الريم وهو الظبي الخالص البياض والشيح نبت ترتعاه المواشي طيب الرائحة (١٠) صور الرقاب مائلوها والاسى الحزن ويرنو يديم النظر وطرف ببصره أطبق أحد جفنيه على الاخر (١١) الوكنة عش الطائر والمهلوك المهزول والتجاليد الجسم ويهتف يصوت من هتف الحمامة وهو صوتها (١٢) الوسامة الحسن والضر سوء الحال (١٣) أصل القري ما يقدم للضيف من الطعام وحثالة الزيت تفله والمقفقف يريد به اليابس

ينفق خلاه الفرش إلا عفاشة ... تمج اضاميم البعوض وتقذف (١)
ومدت له بعد النعاس حشية ... بها جبل عال وغور وقنقف (٢)
توسد ثم ارتاع من بعد هجعة ... لصوت الحيا يتهل والرعد يقصف
وقد زاد ضعف النور في البيت وحشة ... كان به طيف (٣) الشقاء يطوّفُ
اذا ضربتهُ الريح لم يدر ربهُ ... به الريح تشكو أو به الجن تعزف (٤)
نبا النوم عن عينيه حين تنبهت ... وساوسه والهم في الليل يخشفُ (٥)
رأى نفسه رهن الخصاصة والاذى ... وان النواشي عنه لا تتكشفُ (٦)
وان وثاق الذل في الزند محكمٌ ... وان خناق الهم في النحر محصفُ (٧)
اذا استجد الآمال عند اكتئابه ... تبدى له سعر من القار مسدف (٨)
بلاء لعمري لا يطاق وترحة (٩) ... يكل جميل الصبر عنها ويضعفُ

***

وصفت لك الضراء يا صاحب الغنى ... وهل تعرف الضراء من حيث توصف
هي الفقر ما أدراك ما الفقر انما ... لهاة (١٠) الردى منه أخف وألطفُ
حياة بلا أنس وعيش بلا رضى ... فلا الرغد ميسور ولا العمر يزف
بكيتك يا خلو البدين بادمعي ... فانت صريع النائبات المذففُ (١١)
بروح كثير المال يسحب ذيله ... « وانت المعنى يا فقير المكلف »
انت الذي شاد الحصون بعزمه ... وناط نجاد السيف للحرب يزحف (١٢)
وأجرى سفين البحر في اللج ينثني ... ومشى قطار النار في البيد يهذفُ (١٣)
وقد ملأ الانبار للخلق ميرة ... وحاك لهم موشية تتضفُ (١٤)
بلى ان من هان الصبير بكده ... على الارض مفتول الشوى متقشفُ (١٥)
أخو فاقة لم يدخل الطيب رأسه ... ولا مس كفيه القضيب المثقف

***

---

(١) المثنى يريد به المنزل والعفاشة يريد بها رديء المتاع وتمج تلفظ وتلقي والاضاميم الجماعات واصله تخيل (٢) الحشية الفراش المحشو والغور القعر ويريد المنخفض والقنقف مهواة بين جبلين (٣) الطيف الخيال (٤) تشكو تصفر وتعزف تصوت (٥) يريد اشتداده من خشف البرد اشتد (٦) الخصاصة الخلة والنواشي الدواهي والخلة الحاجة والفقر (٧) الخناق ما يخنق به والمحصف المحكم الفتل (٨) القار الزفت والمسدف المظلم من أسدف الليل سدوله (٩) الترح الحزن
(١٠) لهاة الردى شدة الموت (١١) ذفف على الجريح أجهز عليه (١٢) ناط علق ونجاد السيف حمائله (١٣) يسرع «١٤» تنتف «١٥» الجلد أو جلدة الرأس والمتقشف الخشن

أفي الحق أن يشقى الفقير بعيشه ... وذو المال في شر الغواية يسرف
وان يدفع المثري باعقاب بطنة ... غداة خفيف الحاذ بالجوع يدقع (١)
أما في كبود المالئين هوادة (٢) ... ولا رحمة عند الشدائد تعطف
وهل لم يكن بين الانام قرابة ... يمت (٣) بها منهم عديم ومترف
أرى المرء لا يأسو جراحة مملق ... ولو هز فوديه النصيح المعنف (٤)
أراه اذا ما نعم الرغد جسمه ... غدا قلبه يقسو لديه ويصلف (٥)

***

اليكم بني غبراء تدمى عيونهم ... وليس لهم الا المياسير مسعف
يعدون نحو المحسنين أكفهم ... وهل يستوي المكتفي والمتكفف
سألت غزير المال حين يفوتهم ... من الرمل تحثو أم من البحر تغرف
الا انما الحسنى اليوم فريضة ... وفي ذلك الآيات لا تتحرف
فان طلبوا الانصاف قبل سماحة ... ومن لك بالمظلوم لا يتنصف (٦)
عليكم بكشف الضر عنهم فانما ... أخو الضر يمسي ضارياً حين يجحف (٧)
فلا ترهقوهم بالشقاوة والطوى ... فيبدر منهم بادر لا يكفكف (٨)
فان لم ينالوا بالهوادة حقهم ... ينالوه يوماً والصوارم ترعف (٩)
ولا تهملوا حسن الخطاب ولينه ... فان الخطاب العذب نعم المثقف (١٠)
لكم عبرة في الغرب من كل فتنة ... تهز الجبال الراسيات وتخسف
فلو كان عيش للمفاليس طيب ... لما قام منهم قائم متطرف

نسيب أرسلان

«١» يدقع يرضى والبطنة الامتلاء الشديد من الاكل وخفيف الحاذ كناية عن الفقير لا يملك شيئاً والحاذ الظهر «٢» الهوادة اللين والرفق «٣» يمت يتوسل «٤» المملق من أنفق ماله حتى افتقر والفودان ناحيتا الرأس «٥» رغد العيش طيبه وسعته وصلف الرجل تمدح بما ليس عنده وجاوز قدر الظرف «٦» تنصف طلب المعروف «٧» الضاري الجريء ويجحف يجور «٨» ترهقوهم تكلفوهم «٩» تقطر دماً «١٠» المقوم